

الذَّكْوَةُ حَيْلِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ذِكْرُ الْبَيْتِ الْمَوْحِدِ فِيهَا



مكتبة حسين العصرية

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

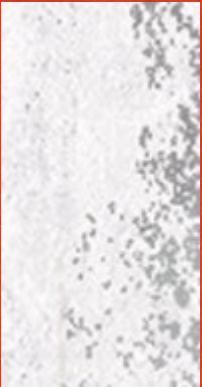
دولة الموحدين

دولة الموحدين: يعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد ابن تومرت، ويوضح عقيدته المنحرفة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة، ويبين أعماله الظلمة والجائرة، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين، ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء وهتك الأعراض عند الموحدين؛ ويسلط الضوء على المراحل التي مرّت بها دعوة ابن تومرت، والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه، ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السنّة والجماعة حتى تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة.

وما جعل للكتاب اهتماماً كبيراً في التاريخ العربي والإسلامي التي قامت في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين، وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات، وما هي أسبابها، وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الأفريقي.

كثيرة ومتعددة، طبعت (دولة الموحدين) وها نحن نقدم إلى قراء العربية طبعتنا هذه بعد موافقة د. علي محمد الصلابي دام خيره للعرب والمسلمين، والله وليّ التوفيق.

الناشر



مكتبة حمزة العصريّة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

دَوْلَتِ مُوسَىٰ

مكتبة حسن العصرية

للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناشر

| | | |
|--|---|---------------|
| 1429هـ / 2009م | : | الطبعة الأولى |
| دولة الموحدين | : | عنوان الكتاب |
| الدكتور علي الصلابي | : | تأليف |
| 368 صفحة | : | عدد الصفحات |
| 24 × 17 | : | قياس |
| غنى الرئيس الشحيمي | : | صف وإخراج |
| مكتبة حسن العصرية | : | الناشر |
| 009613790520 | : | هاتف |
| 009617920452 | : | تلفاكس |
| 14-6501 بيروت - لبنان | : | ص.ب. |
| E-mail: Library-hasansaad@hotmail.com | | |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَجْلَدُ الرَّسَائِلِ

دَوَائِلُ مَوْحِدِيَّةِ

مكتبة حسيك العصرية

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

الإهداء

إلى أبناء الشمال الأفريقي خصوصاً وأبناء الأمة عموماً أهدي
هذا الكتاب سائلاً المولى عزّ وجلّ بأسمائه الحسنی وصفاته
العلی أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا
يشرك بعبادة ربه أحداً﴾

كلمة الناشر

دولة الموحّدين: يعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد ابن تومرت، ويوضح عقيدته المنحرفة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة، ويبين أعماله الظالمة والجائرة، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين، ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء وهتك الأعراض عند الموحّدين؛ ويسلّط الضوء على المراحل التي مرّت بها دعوة ابن تومرت، والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه، ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السنّة والجماعة حتى تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة.

وما جعل للكتاب اهتماماً كبيراً في التاريخ العربي والإسلامي التي قامت في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحّدين، وكيف تعامل الموحّدون مع هذه الثورات، وما هي أسبابها، وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الأفريقي.

كثيرة ومتعددة، طبعات (دولة الموحّدين) وها نحن نقدم إلى قراء العربية طبعتنا هذه بعد موافقة د. علي محمد الصلابي دام خيره للعرب والمسلمين، والله وليّ التوفيق.

الناشر

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾⁽¹⁾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾⁽²⁾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾⁽³⁾.

أما بعد؛

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانتك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الخامس (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي) يتحدث عن دولة الموحدين، فيعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد ابن

(1) سورة آل عمران: الآية 102.

(2) سورة النساء: الآية 1.

(3) سورة الأحزاب: الآية 70، 71.

تومرت ويوضح عقيدته المنحرفة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة، ويبين أعماله الظالمة والجائرة، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء وهتك الأعراض عند الموحدين ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السنة والجماعة حتى تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة، ويعطي نبذة مختصرة عن سلاطين الموحدين ابتداءً من عبد المؤمن بن علي الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ووحيد الشمال الأفريقي بقوة السلاح والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين سار أبناءه وأحفاده عليها من بعده، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأراك التي قادها أبو يوسف يعقوب المنصور في عام 591هـ فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها والنتائج التي ترتبت عليها ويثني على الجهود العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم من منهج أهل السنة والجماعة ويتحدث عن طلب صلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية، ويذكر الأسباب التي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين والوقوف معه في جهاده ضد النصارى.

ويسلط الضوء على الثورات التي قامت في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات وما هي أسبابها وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الأفريقي.

ويقف ووقفات متأملة مع أسباب سقوط دولة الموحدين، فيشير إلى السنن الإلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها.

ويتحدث عن الدويلات في الأندلس والشمال الأفريقي، فيتكلم عن مملكة غرناطة وأسباب صمودها ضد النصارى ودور المرينيين حكام المغرب الأقصى في الوقوف مع

مسلمي الأندلس ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الأندلس ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الأقصى ومنهجها التي قامت عليه ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الأفريقي ويتحدث عن أسباب سقوطها وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم ثم كيف انتزعه السعديون منهم ويثني على أعمال السلطان عبد الملك السعدي الذي حقق نصراً عزيزاً على نصارى البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام 986هـ والذي استشهد في المعركة وتولى أخوه أبو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده ويمضي بالقارئ الكريم إلى فترة انهيار الدولة السعدية ليقف على أسباب سقوطها ومجيء الأشراف العلويين لحكم المغرب الأقصى.

ويتعرض لدولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ويتحدث عن تنظيمهم الإداري وأسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ويقف على أسباب سقوطها وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب الأوسط من قبضة الأسيان الغزاة.

ويتحدث عن الدولة الحفصية في افريقية وأسباب قيامها ونظام ولاية العهد عندهم وعلاقة الدولة الحفصية بطرابلس الغرب ويقف على أسباب سقوط الدولة الحفصية وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وحرروا طرابلس من فرسان الدين يوحنا.

إن هذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية، فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع أن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه. وهدفي من هذا الكتاب :

1- بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة، وعقدية فاسدة.

2- أهمية تحصين الأمة وأجيالها بعقيدة أهل السنة والجماعة وتربية أبنائها عليها حتى يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تحالف القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وإجماع العلماء الراسخين .

3- تسهيل مبدأ الاعتبار والاعتاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

4- التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارى الحاقدين .

5- إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين الذي يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

6- كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الإصلاح وجعلتهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام.

7- بيان أن حركات الإصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة هي التي سارت وتسير على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات.

8- بيان أن الذين كفروا المسلمين، وسفكوا دماءهم وهتكوا أعراضهم بأنهم قادة في الفساد والدمار والإجرام.

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: محمد بن تومرت ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم.

المبحث الثاني: البعد التاريخي عند ابن تومرت.

المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.

المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .

المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.

الفصل الثاني: ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول: عبد المؤمن بن علي.

المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف.

المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور.

المبحث الرابع: الخليفة الموحيدي أبو محمد عبد الله الناصر.

الفصل الثالث: الأندلس والشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموحيدين. ويشتمل

على أربعة مباحث:

المبحث الأول: مملكة غرناطة.

المبحث الثاني: دولة بني مرين .

المبحث الثالث: دولة بني عبد الواد.

المبحث الرابع: الدولة الحفصية.

ثم الخلاصة .

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيني على كل

حرف كتبه ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون

من أجل إتمام هذا الكتاب.

إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك،

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي

الفصل الأول

محمد بن تومرت

المبحث الأول

اسمه ونسبه، ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

أ- اسمه ونسبه:

اختلف المؤرخون في تحديد نسب بن تومرت فبعضهم قال بأنه عربي ، وينتهي نسبه إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي ، والبعض الآخر يجعل نسبه بربرياً صرفاً. والبعض الآخر يجعله نسباً مختلطاً بين البربر والعرب هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول⁽¹⁾.

والمتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعة واحدة بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتى يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأن لقبول دعوته، وإلى تمكنه من اتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما قبلوا هذا الأمر، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى إثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول ﷺ، حيث قال: (وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب

(1) انظر سقوط دولة الموحدين د. مراجع عقيله ص 36 .

إليه، فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدقون في أنسابهم⁽¹⁾.

وقول ابن خلدون فيه نظر، لأن المؤرخين الأثبات والثقات اثبتوا أن محمد بن تومرت لا يتورع في الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه⁽²⁾.

ووافق بن خلدون من المعاصرين الدكتور عبد المجيد النجار⁽³⁾ في صحة نسب بن تومرت إلى بيت النبي ﷺ وادّعى أن صحة هذا النسب تبقى قائمة من حيث الإمكان التاريخي والجغرافي والعقلي.

ويرى محمد بن عبد الله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة، وثوباً مستعاراً قصد ورائها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضاً شعاراً لإمامته ورياسته⁽⁴⁾.

والذي يظهر من البحث العلمي التنزيه، إن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج ما يلي:

1- إنه لم يشتهر بين المؤرخين لاسيما علماء الأنساب منهم أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي، وإنما معظم الذين قالوا بهذا هم من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحى من سلاطينها وأمرائها، أو بتأثر بدعوة ابن تومرت⁽⁵⁾.

2- إن هذا الادعاء كان مألوفاً عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب كما لاحظنا في دراسة الدولة العبيدية الراضية.

(1) ابن خلدون - المقدمة ص 26.

(2) انظر الذهبي سير أعلام النبلاء (539/19).

(3) انظر : تجربة الإصلاح في حركة بن تومرت د. عبد المجيد النجار ص 56.

(4) انظر: عصر المرابطين والموحدين ص 557.

(5) من هؤلاء المؤرخين، أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، وابن القطان، وغيرهم.

3- ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفاً عند اتباعه إلا بعد أن ادعى ذلك لحاجة في نفسه⁽¹⁾.

أما تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحديد سنة الولادة، فمنهم من قال 473هـ⁽²⁾ ومنهم من قال، 485هـ⁽³⁾ ومنهم من قال 469هـ ورجح الدكتور عبد المجيد النجار أنه ولد سنة 473هـ⁽⁴⁾.

ولم تعطي المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة وكانت على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون: «وكان أهل بيته أهل نسك ورباطة»⁽⁵⁾، كما أنها كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها كما يبدو من شوق والد بن تومرت وأخويه عيسى وعبد العزيز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق، ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة⁽⁶⁾.

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته، فتعلم القرآن حفظاً ورسماً وقراءة على عادة المغاربة كما وصفها ابن خلدون في قوله: (أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه... إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبية)⁽⁷⁾.

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وأدبها وشيئاً من الفقه، لقد ظهر اهتمامه

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص 558.

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين ص 36.

(3) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (5/ 52).

(4) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت ص 57.

(5) ابن خلدون - العبر: (6/ 226).

(6) ابن خلدون - المقدمة: 506.

(7) ابن خلدون - المقدمة ص 506.

وشغفه بالعلم منذ شبابه قال ابن خلدون: «وشبَّ محمد هذا قارئاً للعلم، وكان يسمّى «أسفو» ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرح في القناديل بالمساجد لملازمتها»⁽¹⁾.

ب- رحلته في طلب العلم

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصده المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر المعارف، ومهد الحضارات ما يفيد في تحقيق أهدافه التي يرنو إليها.

فبدأت رحلته في عام 500هـ، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عاماً كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره.

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلّم والتلمذ على العلماء في كل من بغداد، والإسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس حيث نزل بقرطبة⁽²⁾ ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين إلا أن الإقامة في قرطبة لم تدم طويلاً بل كانت محطة للعبور⁽³⁾.

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بجرأ ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبد الله المازري ثم قصد مصر على طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام⁽⁴⁾.

ثم توجه إلى الديار المصرية وتلقى دروساً وأخذ علماً من الشيخ أبي بكر الطرطوشي ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام ويؤدي الفريضة⁽⁵⁾ وتوجه من الحجاز نحو العراق ومكث بها ما يزيد على عشر سنوات وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال، والأشاعرة وأخذ من كل ما يخدم فكرته طرفاً

(1) تاريخ ابن خلدون (6/ 226).

(2) البيان المغرب (1/ 435).

(3) نفس المصدر السابق: (1/ 435).

(4) انظر: تجربة الإصلاح لابن تومرت ص 59.

(5) انظر: ابن خلدون (6/ 226).

قال ابن خلدون: (ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علماً واسعاً)⁽¹⁾.

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي، والكنيا الهراسي، والمبارك بن عبد الجبار، وأبو بكر الشاشي.

وكان الإمام الغزالي (ت: 555) مبرزاً في علم أصول الدين والتصوف ومتبحراً في علم الكلام ووقع في أغلاط وأخطاء قال الذهبي عن كتابه الإحياء: (أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم، وزهد في طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً نافعاً).

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً؛ ولم يأت، ولم يأت نهي عنه قال عليه السلام: (من رغب عن سنتي فليس مني)⁽²⁾. فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله ويادمان النظر في الصحيحين، سنن النسائي، ورياض النووي، وأذكاره، تغلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضيات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفة السمحة، فواغوئاه يا الله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، نعم، ولم ينسى الذهبي أنه يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمة من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»⁽³⁾.

وقال الشيخ الطرطوشي⁽⁴⁾ في رسالة له إلى ابن مظفر: (فأما ما ذكرت من أبي حامد فقد رأيت، وكلمته فرأيت جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس

(1) ابن خلدون العبر (6/226).

(2) أخرجه البخاري، كتاب النكاح رقم 5063، ومسلم رقم 1401.

(3) سير أعلام النبلاء (19/340).

(4) توفي عام 521هـ.

العلوم طول عمره، وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العلماء ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شأبها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الإحياء»، عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات»⁽¹⁾.

وأما شيخ الإسلام، ابن تيمية فقد أثنى على كتاب الإحياء قائلاً بأن غالبه جيد وأن فيه فوائد كثيرة لكنه أشار إلى أن فيه مواد مذمومة وفسادة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكروا على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا أمرضه الشفا - يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة - وقال: «وفي الإحياء أحاديث وأثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة. وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة وما هو أكثر مما يُردّ منه»⁽²⁾.

وقد كان يتعرض دائماً لآراء الغزالي في أكثر كتبه وينقد ما جاء فيها بأسلوب هادئ علمي وغالباً ما كان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد أن كان في أواخر عمره مقبلاً على كتب الحديث وأنه قد مات وصحيح البخاري على صدره⁽³⁾.

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت وإن الغزالي كان يتزع متزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد⁽⁴⁾ وإن ابن تومرت تأثر به وكان ابن تومرت رجل متحرر من الجمود والتقليد ومتنور في أطروحته التغييرية.

(1) سير أعلام النبلاء (19 / 341).

(2) درة تعارض العقل والنقل (6 / 210).

(3) فتاوى ابن تيمية (10 / 551-552)، (6 / 55).

(4) انظر تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص 61.

ولابد من بيان أن الغزالي كان مضطرباً في منهجه العقدي ولم تكن مسائل العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأن بن تومرت تأثر به واستفاد منه في بعض المسائل ووظفها لأهدافه السياسية.

وأما شيخه أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بالكنيا الهراسي (ت 504هـ/ 1110م)، فقد كان عالماً في الفقه والأصول والخلافات والتفسير، وله في التفسير كتاب (أحكام القرآن).

وأما المبارك بن عبد الجبار (ت 500هـ/ 1106م) فقد كان محدثاً مكثراً، إلا أن بن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي في نفس السنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت 507هـ)، فقد كان عالماً في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق، وألّف في المذهب كتابه «المستظهر»¹، وكان من شيوخه أيضاً أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت 521هـ) الذي أخذ عنه بن تومرت العلم في الإسكندرية، وكان متميزاً في الفقه، وتمكناً في السياسة الشرعية التي ألّف فيها كتاب «سراج الملوك»، كما كان الطرطوشي مهتماً بنشر السنة ومحاربة البدعة وألّف كتابه «الحوادث والبدع».

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على علوم متنوعة تجمع بين العلوم العقلية والنقلية، فضبط الأصول، وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغير ذلك من العلوم². ورأى عن كثر أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب وحضر مناقشتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

(1) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص 61.

(2) المصدر السابق نفسه ص 62.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول أمارات بلاد المغرب. وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحدة قوية لا في بلاد المغرب وحدها، بل والعالم الإسلامي كله⁽¹⁾.

(1) انظر: سقوط الموحدين ص 37، 38.

المبحث الثاني

البعث التاريخي عند محمد بن تومرت

ونظر في المدارس الفكرية الرئيسية التي وجدت في بلاد المغرب قبله، وخصوصاً تلك المدارس والأفكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبي وسياسي تحميه دولة وشوكة وقوة والتي أكسبت تلك الاتجاهات هبة ومكانة عند الناس، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الأفريقي واهم تلك الاتجاهات والأفكار التي قامت على أسس قوية تحميهها دولة في بلاد المغرب والتي استقى منها بن تومرت أفكاره وزاد عليها.

1- الاتجاه السني ويمثله دولتا الأغالبة والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر

عمرها:

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلبن ابن سالم التميمي الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (171-193هـ) سنة 184هـ على ولاية إفريقية، ثم ما لبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي على الخلافة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الأسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغاً من المال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلب. وقد توالى على عرش دولة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبد الله بن الأغلبن (290-296هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغالبة أنفسهم، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة 296هـ وقد عمل الأغالبة - حين مدة حكمهم - على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب، وصقلية، كما عملوا

أيضاً على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار¹، أما دولة المرابطين (451-541هـ) فقد قامت في جنوب بلاد المغرب الأقصى بزعامه الفقيه عبد الله بن ياسين، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين وكانت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السنة والجماعة، ولم تتأثر بأي نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس التي تبنتها «الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وكل أمور الدولة»²، وكانت من مآثرهم العظيمة جهادهم ضد النصارى في الأندلس وتحقيق نصرهم على النصارى في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرباني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرى (480هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف يتتاب دولة المرابطين لا سيما بعد ظهور دعوة بن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم ما لبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (539-541هـ) سنة 541هـ³، وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس⁴، وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنتين، فإن الدولة الزييرية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (406-453هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة 440هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السنة كما لعن الرافضة وقتل من وجدته في دياره منهم، ثم

(1) انظر: الأغلبية سياستهم الخارجية ص 44 للأستاذ محمود إسماعيل.

(2) انظر: قيام دولة المرابطين لحسن محمود ص 166.

(3) انظر: البيان المغرب (3/23).

(4) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص 541.

ما لبث أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ)¹، وهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها رافضياً². ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبة في كتابي الثاني (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي)، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية وكيف قضى عليه سيف السنة ومزبل البدعة المعز بن باديس في كتابي الثالث (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي) وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عن قادتها العظام في كتابي الرابع (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي).

2- الاتجاه الخارجي: ويمثله دولتا المدرارين (140-347هـ) والرستمين (144-

296هـ).

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة 140هـ على يد عيسى بن يزيد المكناسي والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج، حيث بسطت هذه الدولة سلطتها على منطقة سلجلماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى³.

وفي سنة 155هـ قتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لما أخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار (155-167هـ)⁴، وقد تولى على عرش الدولة أبناؤه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبيديين، فلما تولى محمد بن الفتح بن

(1) انظر: ابن خلدون (6/159).

(2) نفس المصدر السابق.

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. احمد العبادي ص 46.

(4) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص 543.

ميمون بن مدرار (332-347هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبيديين قضوا عليه حينما هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة 347هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار.

أما دولة الرستميين، والتي كانت تنهج المذهب الأباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم (144-171هـ) سنة 144هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له⁽¹⁾.

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ ترك الأمر شورى، بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبد الوهاب، رأى آخرون⁽²⁾ مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبد الرحمن الأمر فيهم، لكن مسعود تنازل لعبد الوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة⁽³⁾ وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها وهو اليقظان بن أبي اليقظان (292-296هـ) وذلك سنة 296هـ⁽⁴⁾، لكن سقوط هذه الدولة لا يعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتى بعد سقوط تلك الدولة⁽⁵⁾.

3- الاتجاه الرافضي وتمثله دولة العبيديين:

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب إذ أن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، لم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة 296هـ.

(1) انظر: المغرب الكبير (3/ 583).

(2) المصدر السابق: (2/ 552-553).

(3) انظر: الأزهار الرياضية للباروني (2/ 990).

(4) انظر: المغرب الكبير (2/ 565).

(5) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. احمد العبادي ص 48.

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغلبة، والرستميين، والمدرارين، والأدارسة فاستطاعت بذلك - إلى حد ما - أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار، وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار، بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس⁽¹⁾، كما أن أهل السنة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام 362هـ.

4- الاتجاه الاعترالي: ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (172-313هـ)

أقام هذه الدولة إدريس بن عبد الله بن الحسن سنة 172هـ وذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية، حيث امتدت حدود دولة الأدارسة من المحيط الأطلسي غربا إلى تلمسان ووهران شرقا⁽²⁾.

ولما توفي إدريس بن عبد الله سنة 177هـ بقي الأمر في سلالة حتى قضى على دولتهم العبيديون عام 313هـ⁽³⁾، وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف⁽⁴⁾، وقرب نسبهم للرسول ﷺ ولكنهم لم يظهروا شيئا من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقرار تاريخ تلك الدولة.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعترالي، فالذي يبدو هو أن زعماء هذه الدولة لا سيما القدماء منهم وجدوا أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين

(1) المصدر السابق : ص 55.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب ص 50.

(3) تاريخ المغرب الكبير (2/486).

(4) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص 51.

أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصباً من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبوؤه وعملوا على نشره، لكن الدراسة لم يظهرها حماساً وجعله مذهباً رسمياً لدولتهم⁽¹⁾.

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع المذاهب السابقة وزاد عليها مما يخدم ميوله ويحقق أهدافه ولذلك جاءت الأسس الفكرية لدعوته خليطاً مضطرباً ونسيجاً فكرياً متبايناً.

إن ابن تومرت لم يكن صاحب مدرسة فكرية تعرف به، لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها. ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحث فقط، ولا كان رجل سياسة فقط. بل انه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة. فهو في دينه، ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف وهو في علمه، متبحر ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية وآتى هذا الغرس نتاجه في عهد يوسف بن عبد المؤمن، ويعقوب بن يوسف ويعتبر رجل السياسة لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها⁽²⁾.

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة واخذ من المذاهب الفقهية والفكرية ما يتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه وسنرى ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى.

(1) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص 546 - العدد السادس.

(2) انظر : سقوط دولة الموحدين ص 38.

المبحث الثالث

مسيرة العودة وخطواته الحركية

في عام 510هـ⁽¹⁾، شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الأفريقي واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحمل المصاعب والمشاق ويشكل خلايا تابعة له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر ومكث في الإسكندرية وخرج منها بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقصد طرابلس بحراً حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية ثم انتقل إلى المهديّة بتونس واتخذ أحد مساجدها مقراً يدرس به العلم مركزاً على علم الأصول وحدث اضطراباً في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم اضطرت للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس وكان في الطريق يختار بعض رفقاته المخلصين وتوجه بهم نحو القسطنطينية، ثم بجاية التي وصلها سنة 511هـ وأقام بها مدة واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وناظر الفقهاء بها وظهر عليهم⁽²⁾.

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الذي كان متجهاً إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته وقد لمح ابن تومرت في عبد المؤمن بن علي علامات الذكاء وصفات النبوغ وملامح الفطنة وأخبر بن تومرت تلميذه بحقيقة ما ينوي القيام به⁽³⁾ فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكروه.

(1) روض القرطاس ص 120.

(2) انظر: تجربة الإصلاح في تجربة المهدي بن تومرت ص 63.

(3) انظر: المغرب الكبير (2/ 774، 775).

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الأتباع، فالرواية تقول أن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبد المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر، وان صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع بدم و م ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبد المؤمن ويشر به قبل قدومه.

وكتاب الجفر هذا: يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق رحمه الله كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوباً عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سعيد العمجلي رأس الزيدية، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل، فإن جعفر الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب قال تعالى: ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون ايان يبعثون ﴾ (سورة النمل، آية: 65).

وقال تعالى: ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (سورة الأنعام، آية: 59).

إن كتاب الجفر لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق رحمه الله، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتميز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع من عرف بالكذب والاختلاف، كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد السائب، وأمثالهما، وغير خاف على طلبة العلم أن ما لا يعلم إلا من طريق النقل لا يمكن الحكم بثبوتها إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم توجد، فلا يسوغ لنا شرعاً وعقلاً أن نقول بثبوتها⁽¹⁾.

(1) انظر: مجلة المنار (60/4) لمحمد رشيد رضا.

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف، ويظهر للباحث أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال إقامته بالشرق، فقد كانت الباطنية تهتم اهتماماً كبيراً في هذه الأمور⁽¹⁾.

لقد تقاربت أفكار عبد المؤمن مع شيخه وخصوصاً ما يتعلق بالخروج على السلطان ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت، وأخذ يعملان سوياً من أجل تقويض دولة المرابطين⁽²⁾.

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ولعبوا دوراً هاماً في دعوته عبد الله الونشريشي الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة. وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتبه به عند الناس على أن يداوم على أخذ العلم في السر ثم يفصح عن ذلك دفعة واحدة عندما يطلب منه بن تومرت ذلك فيكون بمثابة المعجزة فيصدق الناس ويزداد إيمانهم بدعوته، فقام الونشريشي بذلك وأتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس⁽³⁾.

واستمر بن تومرت في تنقله إلى المدن ووصل إلى فاس، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام 514هـ وكان خلال هذه المدة ملتزماً ببرنامجه الذي وضعه لنفسه والذي كان من ضمن أهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوة الجسمانية قليلي التجربة، إضافة لاستمراره في الأمر المعروف والنهي عن المنكر مما أفضى إلى طرده من فاس، فتوجه إلى مراكش⁽⁴⁾ مقر حكم المرابطين. وخلال رحلته إليها كان ينبه عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية⁽⁵⁾ ويدل ذلك على أنه كان يخطط

(1) انظر: دولة المرابطين ص (101).

(2) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (102).

(3) انظر: ابن خلكان (48/5).

(4) انظر: البيهقي أخبار المهدي بن تومرت ص (21-26).

(5) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (103).

لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين.

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام 514هـ في زي الزهاد وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد قضاة أو وزرائه، لأنه شاهد من مراكش من المفاسد ما لم يره في مدينة ثانية⁽¹⁾ وصدق أن رأى أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها فويخها فشكته إلى أخيه ثم توجه بن تومرت إلى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفاً فاستنكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب، وخاطب علياً قائلاً «الخلافة لله وليس لك يا علي بن يوسف»⁽²⁾.

ولما كثر نشاط بن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه علي للاطلاع على حقيقة أمره، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها، والعمل على إحياء السنة، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه⁽³⁾.

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل، فإن كان على حق اتبع وإن كان على جهل أدب⁽⁴⁾.

وكانت المناظرة فرصة لا تعوض لابن تومرت، لأنها ستتيح له إبراز ما لديه من

(1) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ص (4/282).

(2) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (103).

(3) انظر: دولة المرابطين لسلامة محمد سليمان ص (104).

(4) انظر: دولة المرابطين لسلامة محمد ص (104).

علم، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته وفصاحته. وهي أيضاً وسيلة دعائية ممتازة لدعوته لأن ما ستسفر عنه ستتأقله الألسن، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور.

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته، وعن بعض القضايا التي أثرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره، وهذا ما يسعى إليه لضم أعداد جديدة إلى صفوفه.

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين علي الغاص بالعلماء والأعيان، قدم علماء الدولة المرابطية - الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل - عنهم قاضي المرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة.

وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمة في المناظرة لتصوير فساد الأوضاع في الدولة المرابطية، فأوضح أن الخمر تباع جهاراً نهاراً، وأن الخنازير تمشي في الشوارع وأن أموال اليتامى تؤكل، ويبين أن الذي يتحمل المسؤولية هم حاشية أمير المسلمين لإخفائهم تلك الأوضاع عنه⁽¹⁾.

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد أن يثبت عجز العلماء مراكش عن مجاراته في العلم، فطرح عليهما بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عليها. فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ما عجزوا عنه بأسلوب أخاذ، يسخر له كل ثقافته وفصاحته، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت⁽²⁾.

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخره وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليكتفي شره، لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألهم على المرابطين. ولكن وزير علي بن يوسف يتنان بن عمر، وسير بن

(1) انظر: ابن خلكان (5/).

(2) انظر: دولة المرابطين تأليف سلامة محمد ص (105).

وربيل، أفتعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب.
وألح مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن إذا لم يقتله، وقال له:
«اجعل عليه كبلًا كي لا تسمع له طبلًا» فوافقه على ذلك⁽¹⁾. وحال يتتان مرة ثانية دون
الأخذ برأي مالك بن وهيب والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: «يا أمير المسلمين هذا
وهن في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف فخلّ سبيله انه رجل لا يملك سد
جوعه»⁽²⁾. لقد أصابت كلمات الوزير يتتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه
وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين⁽³⁾.

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس، بالقرب من مراکش وبنى فيها خيمته
وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق، فهو إيحاءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد
الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من قبل المناوئين له. كما أن اختيار هذا المكان
سيدفع الكثير من الفضوليين إلى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ
الحياة وزخرفها وارتضى الحياة بين الأموات فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه إليه.

والمقبرة من ناحية أخرى مكان مناسب وهادئ، وبعيد عن الأعين، فيتحدث هناك
بما يشاء إلى تلاميذه، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه.

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية:-

1- إظهار للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقمصه لأساليب وشخصيات المصلحين،
فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت
مبكر وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها، فأخذ
يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك⁽⁴⁾.

(1) انظر: وفيات الأعيان (5/49،50).

(2) انظر: دولة المرابطين ص (106).

(3) انظر: وفيات الأعيان (5/49،50).

(4) انظر: وفيات الأعيان (5/46).

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين: الأول منها هو لفت أنظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين، أما الثاني فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، وذلك ليكونوا دعاة إلى أفكاره ومبادئه، وقد نجح في ذلكم حيث يذكر البيهقي أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره مؤمنين به. ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقامة هناك...»⁽¹⁾.

أن ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العملي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب بعد ذلك من يتقبلها من تلاميذه.

ويبدو أن جراحة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة⁽²⁾ حيث يذكر تلميذه البيهقي، أنه ما أن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى كثر حوله المؤيدين والأنصار، فاختر بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ومخايل الذكاء والنجابة، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت هذه الخطوة الأولى التي نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، ومن خلال تتبعنا لهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عدد من السبل حتى يظهر دعوته للناس، ويجمع حوله المؤيدين والأنصار ومن هذه السبل ما يلي:

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (549).

(2) انظر: الدعوة الموحدة بالمغرب عبد الله علام ص (85).

أ- أنه تدرج في إظهار دعوته، كما البسها الصبغة الإصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن منهج أهل السنة والجماعة، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم كما يقول المراكشي⁽¹⁾.

ج- أنه كان يباليغ في إنكار المنكر على الحكام الذي يمر بديارهم كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية⁽²⁾، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس.

د- مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه كان لا يتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يذكر البيهقي أنه كان إذا خشي بطشاً وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون⁽³⁾، وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجأون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تنكشف حقائقهم⁽⁴⁾.

يقول ابن العماد: (جرّه إقدامه وجرأته على حب الرياسة والظهور وارتكاب المحظور ودعوى الكذب والزور من أنه حسني وهو هرغي بربري وانه معصوم وهو بالإجماع مخضوم...) ⁽⁵⁾.

(1) المعجب ص (270).

(2) ابن خلدون (6/ 227).

(3) أخبار المهدي بن تومرت ص 22.

(4) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (550).

(5) شذرات الذهب (4/ 70).

2- وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته، أنه جدّ في تكوين قاعدة قوية مؤمنة بالمبادئ التي يدعو إليها، حيث أعد أفرادها إعداداً خاصاً، وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلاً⁽¹⁾، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث انشأ حلقات للتدريس كان يبيث أفكاره من خلالها ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ألف لهم كتاباً في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته حيث طالبهم بحفظه⁽²⁾.

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يهتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشي من بطش الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنورياكل - إحدى قبائل صنهاجة - فأووه واجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه⁽³⁾، ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى وخاف من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هرغة حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتفى بشوكتيها من المرابطين، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

هكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته وقد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة مما أدى إلى إعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها⁽⁴⁾.

3- ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب، وقد جاء عمله بهذه الخطوة إذا

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص 549.

(2) ابن القطان نظم الجهات ص (46).

(3) ابن خلدون (6/227).

(4) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (551).

ماقورن بالخطوتين السابقتين، وذلك لأن بن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكون قاعدة شعبية يتكئ عليها في ساعات الخطر، فلما أطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذاً الأمر بالمعروف ستاراً لتحقيق غايته وطريقاً لإظهار مفاسد دولة المرابطين فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصارى والمجوس⁽¹⁾.

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين، لاسيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف، فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة 515هـ وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التفت حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختر منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين⁽²⁾.

وفي بلاد السوس أسس بن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التفت حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختر منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته حيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس وبهذا استطاع أن يوجد حاجزاً نفسياً قوياً بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين، وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدنين للتصدي للمرابطين، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر بن تومرت بقبول دعوته في أوساط المرغيين أراد توسيع نفوذه على القبائل

(1) البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت ص (9).

(2) انظر: ابن خلدون (6/228).

المجاورة، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم وأوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه، لأن أسلوب العنف الذي كان مجدياً في الحواضر الكبرى أمثال: فاس، ومراكش، والمهدية، لا يجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم وهذه الخطوة تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيراً بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته، فكان يتخذ لكل فئة أسلوباً مناسباً لها، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات وهذا لا يفتن إليه إلا من أوتي حظاً وافراً من الفطنة والدهاء ونجح دعاة ابن تومرت في تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل إلى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقه وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم إلى صفوفه⁽¹⁾.

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور، لا تزال إلا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب، ومن يشك فيه فهو كافر، وأن هذا الوقت وقته وأنه سيفتح المشرق والمغرب، ويملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً⁽²⁾.

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدي، قرر أن يعلن بأنه هو المهدي المنتظر. فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيباً موضحاً لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه، فبادر إليه العشرة الملازمين له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجتهم دونه ولما كملت بيعته لقبوه المهدي القائم بأمر الله، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام⁽³⁾، وكان تاريخ هذه البيعة على الراجح في جبل ايجليز⁽⁴⁾ في عام 518هـ/1124م وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينمل، لأنه لا يعقل أن يعلن مهديته

(1) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (109).

(2) انظر: الكامل لابن الأثير (6/562).

(3) ابن خلدون (6/228).

(4) انظر: دولة المرابطين ص (111).

الكاذبة فور وصوله إلى إيجليز بل الأمر كان يحتاج إلى وقت، وهذا ما حدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين وساعده على نجاحه ما كان يتسم به كثير من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة، فضلاً عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير⁽¹⁾.

لقد ركب الحرام، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

إلى وفي النفس أشياء مخبأة لا لبس لها درعاً وجليباً
كيا اظهر دين الله من دنس وأوجب الفضل للسادات إيجاباً⁽²⁾
تالله لو ظفرت كفي بمطلبها ما كنت عن ضرب أعناق الوري أبي⁽³⁾

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة، فقسم اتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين واتهمهم بالتجسيم وهم براء منه وبعد أن فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاءه في جبل إيجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانتقل إلى تينمل⁽⁴⁾ في قلب جبال الأطلسي الكبير عام 518هـ/ 1124م واتخذ قاعدة لدولته الناشئة، وقد بقي فيها حتى وفاته عام 524هـ/ 1129م⁽⁵⁾.

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (554).

(2) انظر: الذهبي (سير أعلام النبلاء (19/ 552)).

(3) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (111).

(4) نفس المصدر السابق ص (112).

(5) نفس المصدر ص (112).

المبحث الرابع

الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

إن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ولا تتفق مع منهج أهل السنة والجماعة الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت:

أولاً: أنه ادعى المهديّة وقال بأنه هو المهدي الذي وعد الرسول - ﷺ - بخروجه في آخر الزمان، حيث قال في خطبته حين مبايعته إماماً للموحدين سنة 515هـ: (الحمد لله الفعل لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي...)⁽¹⁾. ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء بل انه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب اتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله: (أن العدل ارتفع، وان الجور عم وان الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا، وان الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا، وان الدجالين استولوا على الدنيا، وان الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وان الحق لا يقوم إلا بالمهدي، وأن المهدي معلوم في العرب، والعجم، والبدو والحضر، وان العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان وأن...)⁽²⁾.

(1) نظم الجمان لابن القطان ص (75).

(2) انظر: أعز ما يطلب لابن تومرت ص (257).

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي، عدد صفاته بقوله: (انه فرد زمانه صادق في قوله، وأنه يملأها بالعدل - يعني الأرض - ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بينها بقوله: «وأنه يعني المهدي - معصوم فيما دعا إليه من الحق لا يجوز عليها الخطأ وأنه لا يكابر، ولا يضاد، ولا يدافع ولا يعاند، ولا يخالف ولا ينازع... وأنه صادق في قوله، وأنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وانه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وأنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور...»⁽¹⁾.

هكذا كان رأي ابن تومرت في المهدي، كما يصور ذلك تراثه الفكري، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي بالمغرب الأقصى مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك.

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما ملئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتخرج الأرض نباتها، وتُمطر السماء مطرها، ويُعطي المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم والخير أيامه دائم»⁽²⁾.

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه:

أ- اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه، كاسم النبي ﷺ فيكون اسمه

(1) ابن تومرت: أعز ما يطلب ص (256، 257).

(2) النهاية، الفتن والملاحم (1/ 31) تحقيق د. طه زيني.

محمد أو أحمد بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم من ولد الحسن ابن علي رضي الله عنهم.

قال ابن كثير - رحمه الله في المهدي: «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه»⁽¹⁾.

وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقى الأنف»⁽²⁾.

ب- مكان خروجه:

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم.. (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال...) فإذا رأيتموه، فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي...»⁽³⁾.

قال ابن كثير - رحمه الله -: (والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق «لا من سرداب سامراء» كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهديان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب، ولا من سنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان.. إلى أن قال «ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود

(1) النهاية، الفتن والملاحم (1/29).

(2) الأجل: الخفيف شعر ما بين التزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

(3) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (2/1367).

«أيضاً» وهو زيّ عليه الوقار» لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: العقاب» إلى أن قال: (والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويباع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث...)⁽¹⁾.

2- وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟)⁽²⁾.

3- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» إلى أن قال: (فينزل عيسى بن مريم صلى عليه وسلم، فيقول أميرهم، تعال صل بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة)⁽³⁾.

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهُده.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمّى: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

(1) النهاية الفتن والملاحم (31/1).

(2) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى، (6/491) مع الفتح.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإيثار، باب نزول عيسى (2/193).

1- فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه)⁽¹⁾.

2- وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ (ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة)⁽²⁾.

3- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي منِّي أجل الجبهة، أقتى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين...»⁽³⁾.

ولقد تكلم العلماء في أحاديث المهدي وقالوا:

1- قال الشوكاني: (الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع وإذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك ..)⁽⁴⁾.

2- وقال صديق حسن خان: (الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد)⁽⁵⁾.

3- وقال الشيخ محمد جعفر الكتاني: (والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي

(1) رواه أبو نعيم في "أخبار المهدي" صححه الألباني صحيح الجامع الصغير (5/7170).

(2) المنار المنيق لابن القيم ص (147-148).

(3) سنن أبي داود، كتاب المهدي (11/375) رقم 4265.

(4) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

(5) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص (112).

المتنظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام⁽¹⁾.

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد، مسند أحمد، مسند البزار، ومسند أبي يعلى، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومستدرك الحاكم، ومصنف بن أبي شيبة، وصحيح بن خزيمة، وغيرها من المصنفات⁽²⁾ التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أقرودوا في المهدي المتنظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه. ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة⁽³⁾ وعن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»⁽⁴⁾ محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التضعيف والتصحيح، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: «فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو القليل أو الأقل منه⁽⁵⁾».

(1) نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص (147).

(2) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المتنظر ص (166/168).

(3) تفسير المنار (9/499 - 504).

(4) دائرة معارف القرن العشرين (10/480).

(5) مقدمة ابن خلدون (1/574).

قال يوسف الوابل في أشرط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون: ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة⁽¹⁾.

قال الشيخ احمد شاکر رداً على ابن خلدون: (إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين) الجرح مقدم على التعديل ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره⁽²⁾، ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صواباً وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً وهذا يكفي وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الأسرئليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبية، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصفحوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث ثم إن

(1) أشرط الساعة للوابل ص (267).

(2) تعليق أحمد شاکر على مسند الإمام أحمد (5/ 197 - 198).

المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعوا له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يُعتدّ به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمده يُردّ بها ما ثبت من حديث الرسول ﷺ⁽¹⁾.

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحسّ فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخیل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا! ثم يرجعون بالخبية والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن تلد الذي كلمتموه بجهلكم ما أنا؟

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل (...)⁽²⁾.

وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدي المنتظر ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعى المهديّة.

(1) انظر: أشراف الساعة ص (267).

(2) انظر: المنار المنيف ص (152 - 153).

إن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح. لقد جعل ابن تومرت من المهدي عقيدة ألزم بها اتباعه وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادّعاه لنفسه أمر العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي المعصوم، ثم أشاع ذلك بين اتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم، دون حرج أو تردد، وقد أكد هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذ جاء فيها: «ويجب أن يكون الإمام معصوماً من الباطل ليهدم الباطل، كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال.. ولا بد أن يكون الإمام معصوماً من هذه الفتن وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبتته... وأن يكون معصوماً من الكذب لأن الكذب لا يهدم الكذب بل يثبتته، وأن يكون معصوماً من الباطل.. ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم»⁽¹⁾.

كما قال بعصمة الإمام من الزلل والفساد حيث قال: «لا يقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد»⁽²⁾ وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبحت اتجاهات قوية من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية، وقد تمكن من تأصيل هذا الأمر عند اتباعه حتى أطلقوا عليه لقب المعصوم، وأصبح هذا اللقب من أشهر ألقاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاؤه به⁽³⁾.

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولاً بالتلميح لهم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروي في ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنها تمثل فيه، لقد سلك مع اتباعه مسلك التدرج فأقتنعهم بنسبه العربي الهاشمي ثم بالمهدية ثم بالعصمة.

(1) انظر: أعز ما يطلب ص (245 - 246).

(2) أعز ما يطلب ص (246).

(3) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس.

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله من شرع ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي وغيرهم⁽¹⁾.

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثني عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجود عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان⁽²⁾ كما قالوا: إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان⁽³⁾ وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير «لأن من جعل بعد الرسول معصوماً يجب الإيثار بكل ما يقوله فقد أعطاه معنئ النبوة وأن لم يعطه لفظها»⁽⁴⁾ بل لم يكتف بهذا الأمر حيث كان يأمر بقتل كل من يشك في عصمته.

ولكي يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند اتباعه ألف لهم كتاب أعز ما يطلب⁽⁵⁾ وأمرهم بقراءته بل حفظه، وهذا بلا شك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه.

ولقد أخطأ الدكتور عبد المجيد التجار عندما قال (وما قال به - أي محمد بن تومرت - من عصمة الإمام يخالف أيضاً العصمة عند الشيعة، بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغاً فيها للشروط التي يشترطها أهل السنة في الإمام)⁽⁶⁾ ولقد ذكرت

(1) انظر: النبوة الأنبياء للصابوني ص (55-56).

(2) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (1/195).

(3) انظر: عقائد الإمامية محمد رضا ظافر ص (72).

(4) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص (560).

(5) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص (560).

(6) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ص (127).

شروط أهل السنة في الإمامة في الكتاب الثاني من (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي).

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غرسها ابن تومرت في أصحابه سهلت له القضاء على خصومه ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين.

ثانياً: لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم كقوله: حيث سمى مرتكب الكبيرة بالفاسق ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة⁽¹⁾.

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله - سبحانه - حيث قال حينما تحدث عن صفات الله: «واشتغلوا بتعليم التوحيد فانه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والتقائص، والآفاق، والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فانه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن»⁽²⁾ لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سمي أصحابه بالموحلين⁽³⁾، لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لتفهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن بإيمانكم»⁽⁴⁾.

(1) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (548/19).

(2) انظر: أعز ما يطلب ص (204).

(3) انظر: عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد 12 سنة 1950 ص 49 حسين مؤنس.

(4) انظر: المراكشي المعجب ص (276).

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله - سبحانه وتعالى - حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان «... جُل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية...»⁽¹⁾ أما المقرئ فيرى أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علمتهم المذهب الأشعري فكان ذلك سبباً في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب⁽²⁾.

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها⁽³⁾.

لقد وظّف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واهتمهم بالتجسيم والكفر لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله.

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار في أعين رعيّتهم، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر، ومن ثم يحل للموحدين قتاله ومعاملته معاملة الكافر كما وأن هذا المبدأ جعل الموحدين يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق ويكافحون الكفر وطواغيته، وأن معتقدتهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم، وأن الموت في سبيل الله ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة. فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان، هما الروح المعنوية العالية والدافع

(1) نفس المصدر ص (276).

(2) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (564).

(3) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (39).

المادي. فانطلقوا كالأعصار يحطمون أعدائهم وينشرون مبادئهم⁽¹⁾.

إن الدكتور عبد المجيد النجار في كتابه تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت والذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي والذي قدم له الدكتور طه العلواني يشي على المنهج العقدي لابن تومرت ويلمز من طرف خفي منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة حيث يقول: (وفي المجال العقدي حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم، حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها، واعتقدوا فهماً جديداً يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقته التقرير العقدي لابن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري، وقد قامت رسائله المبسطة الموجزة في العقيدة وخاصة رسالة المرشدة بالدور الكبير في ذلك حيث أصبحت مقرأً للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام)⁽²⁾.

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الأفريقي واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد سئل ابن تيمية عن المرشدة كيف كان أصلها وتأليفها؟ وهل تجوز قراءتها أم لا؟ فقال: (الحمد لله رب العالمين. أصل هذه: انه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت: الذي لقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفاً من العلم. وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (39،40).

(2) تجربة الإصلاح عند بن تومرت ص (138).

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب، إلى قوم من البربر وغيرهم: جهالاً لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام واستجاز أن يظهر لهم أنواعاً من المخاريف، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطنهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ الذي يواطئ اسمه اسمه، واسم أبيه وانه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً. وان من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، ونحو ذلك من الكلام. فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره.

ثم أن أولئك المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهرها أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا، وانه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره وأتباعه. وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا إخباره من هذه الحكايات أنواعاً وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه...⁽¹⁾. واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة. يقرؤون القرآن والحديث: كالصحيحين، والموطأ وغير ذلك والفقهاء على مذهب أهل المدينة فزعم إنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن احد من أصحاب مالك القول بالثبوت والتجسيم.

واستحل أيضاً أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ما كانت تستحلها الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات - من أهل السنة والجماعة...

ومذهب السلف وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عن الله ما أثبتته لنفسه،

(1) انظر: الفتاوى (11/477).

ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثلته شيء. لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل، ونفي مجمل، وأعداء الرسل: الجهمية الفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل وإثبات مجمل. فان الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه: بكل شيء عليم وانه على كل شيء قدير وانه حي قيوم، وانه عزيز حكيم، وانه غفور رحيم، وأنه سميع بصير. وأنه يحب المتقين والمحستين والصابرين وانه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وانه رضى عن المؤمنين ورضوا عنه، وانه يغضب على الكفار ويلعنهم، وانه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه. وانه كلم موسى تكليماً، وان القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد ﷺ. كما قال: «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين» وقال تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة».

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ انه قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ناد مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجز كوه: فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار، قال فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة، وقد استفاض عن النبي ﷺ في الصحاح انه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته» و «أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضامون في رؤية الشمس صحواً ليس دونها حجاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر» فشبّه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي فإن العباد لا يحيطون بالله علماً، ولا تدركه إبصارهم. كما قال تعالى: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» .

وقد قال غير واحد: من السلف والعلماء إن «الإدراك» هو الإحاطة فالعباد يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾، «هل تعلم له سمياً» ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فيبين في هذه الآيات أن الله لا كفوله، ولا ند له، ولا مثل له ولا سمي له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي، أو استواءه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي، أو إتيانه كإتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه. تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر.

ومن قال: أن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا مشيئة، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضى، ولا غضب، ولا استواء ولا إتيان ولا نزل فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، كما قال نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

ومما يبين ذلك. أن الله تعالى اخبرنا أن في الجنة ماءً ولبناً وخمراً وعسلاً ولحماً وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم؟!

والله تعالى قد أخبر انه سميع بصير. وأخبر عن الإنسان انه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، واخبر انه حي، وعن بعض عباده انه حي، وليس هذا مثل هذا. وأخبر انه رؤوف رحيم، واخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم، وليس هذا مثل هذا. واخبر انه عليم حليم، واخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم، وليس هذا مثل هذا. وسمي نفسه

الملك، وسمى بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا. وهذا كثير في الكتاب والسنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد وغيرهم. على هذا إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل، نفاة الصفات، ولا يقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوق، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم - فيصفون الرب تعالى «بالصفات السلبية» ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكره مطابقاً للمعدوم، فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم، فيناققون يثبتونه من وجهه، ولا يجحدونه من وجه آخر. ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجوداً، فانه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين، ولا يتميز عن غيره، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر أمراً مطلقاً، وان كان لا حقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مباحيناً لخلقه، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون هو وجود المخلوقات ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم - الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم - كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة، ونصرهم. بقي هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم على انه وجود مطلق، ولا يزيدون على ذلك.

وصاحب المرشدة كانت هذه عقيدته كما صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.

ولهذا لم يذكر في «مرشدته» الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام! من الكلاية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشائخ التصوف والزهد، وعلماء أهل الحديث فان هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدره. كما قال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾. ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة. ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فأقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه. واقدر لي الخير حيث كان. ثم أَرْضني به» .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله.

فصاحب «المرشدة» لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة

والجماعة، ولا ذكر فيها الإيذان برسالة النبي ﷺ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة. ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة. بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة ونحوهم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة. أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطال قوله.

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات. ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في أولها انه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجهه الله ورسوله وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجهه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا احد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقا، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وبطلاً، فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام⁽¹⁾ على ذلك في كتاب كبير وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون إذ جميع امة محمد ﷺ موحدون، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد احد و (التوحيد) هو ما بينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ. كقوله تعالى: ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً احد ﴾ وهذه السورة تعدل ثلث القرآن. وقوله: ﴿ قل يا أيها الكافرون. لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد لكم دينكم ولي دين ﴾ وقال تعالى: ﴿ فاعلم انه لا إله

(1) الذي بسط الكلام العلامة ابن تيمية.

إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات» وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً فمن قال أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق. أو قال: أن الله يرى في الآخرة أو قال: «أستخريك بعلمك. واستقدرك بقدرتك» لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبهاً مجسماً، وصاحب «المرشدة» لقب أصحابه موحدين، أتباعاً لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان، وألحدوا في التوحيد الذي انزل الله به القرآن.

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى: انه قادر على ما يشاء وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: انه لا يقدر على غير ما فعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير. سواء شاءه أو لم يشأه. كما قال تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم. ومن تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً﴾.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: هاتان أهون.

قالوا فهو يقدر الله عليها وهو لا يشاء أن يفعلها، بل قد أجاز الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لا يسלט عليهم عدواً من غيرهم فيحتاجهم، أو يهلكهم بسنة عامة. وقد قال تعالى: ﴿أيجسب الإنسان أن لن نجعل عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقال تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها...﴾ وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ فالله قادر على ذلك، فلو شاءه لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة وبيننا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك،

فانه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في خلاف ذلك، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه أن يتبع ولا يتدع، ويقتدى ولا يتدي، فان الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. وقال له: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ وقال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ والنبى ﷺ علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فياخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قال: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾⁽¹⁾ وهذا رد علمي رصين على المرشدة التي وضعها ابن تومرت لأصحابه تبين للقارئ فساد بن تومرت في منهج العقائد وبعده عن القرآن والسنة واعتماده لمناهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وكان رد العلامة بن تيمية مليئاً بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة كيف لا وهو ينهل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وطريق السلف الصالح إن فحول علماء الكلام وأئمة هذه المناهج من أمثال أبي الحسن الأشعري (330 هـ)، (وأبي حامد الغزالي (505 هـ) والفخر الرازي (606 هـ)، وإمام الحرمين (478 ت هـ) رجعوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة في آخر حياتهم ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم.

(1) انظر: الفتاوى (11/476 إلى 491).

أ- أبو الحسن الأشعري: وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتزال وشرع في الرد على باطله يقول في كتابه الإبانة: (فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبها كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نصر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته نحن قائلون، ولما خالف قوله مجانبون⁽¹⁾).

ب- إمام الحرمين الجويني: (لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمة...)⁽²⁾.

ج- الإمام الغزالي: (إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية، وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مشار الفتن، ومنع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان)⁽³⁾.

(1) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص (17).

(2) انظر: الحموية لابن تيمية.

(3) إجماع العوام عن علم الكلام ص (89، 90).

د- وأما الفخر الرازي فقد قال في وصيته: (ولقد اخترت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع في التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات... فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به.. والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين...)⁽¹⁾.

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته، والتي أحس فيها بالندم والتوبة:
 نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
 وأرواحنا في وحشة من جسمنا وحاصل دياننا أذى ووبال
 ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا⁽²⁾
 كذلك قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
 فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادماً⁽³⁾

إن ابن تومرت استخدم في حربه ضد المرابطين أساليب متعددة منها رميهم ظلماً وزوراً بالتجسيم وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال والأشاعرة، والرافضة أساساً لعقيدة دولة الموحدين الجديدة، وأصبح فيما بعد من أعلام مدرسة الأشاعرة لسبيين:

(1) انظر: عن القائد لتصحيح العقائد ص (74).

(2) انظر: إيثار الحق على الخلق ص (8).

(3) المصدر السابق نفسه.

1- لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا بل تبنى - بصفته إماماً مطاعاً - هذا الجانب فكان لسلطته الدور الأكبر في انحصار مذهب أهل السنة، وفسوا مذاهب المتكلمين.

2- تأليفه للمرشدة، وقد تكلمنا عنها وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس، بحيث تدرس للعوام، مما جعلها تشتهر بسرعة.

وفيا عدا ذلك فابن تومرت يبدو أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة، ومذهب الشيعة وقد كان أحد أتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لا يسميه إلا الإمام المعصوم، وليس قربه من هؤلاء بأقل قربة من الأشاعرة بل أخذ شيئاً من الخوارج لاسيما في التساهل في الدماء ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضرباً من الجهاد في سبيل الله، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وقد أدرك هذا التأثير علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب⁽¹⁾.

إن دعوة بن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضاً ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتمييزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل⁽²⁾.

ومما لاشك فيه أن الخليط التومرتي في الأفكار والعقائد كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، وخصوصاً بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسي يحميها وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب.

(1) انظر: الدعوة الموحدية لعبد الله علام ص (151).

(2) الدعوة الموحدية بالمغرب عبد الله علام ص (151).

وقد تحدث المؤرخ المغربي السلاوي عن هذا الأمر بقوله: «... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رضي الله عنهم - في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر... واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة»⁽¹⁾.

لقد اشتط ابن تومرت وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ولذلك نجده كفر من لم يؤمن بما يقول، ويعتق ما يدعو إليه، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرح به في أكثر من مناسبة، كما ضمنه كتبه التي ألفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا «... على إهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دماءهم واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل...»⁽²⁾.

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة 517هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: «أقصدوا هؤلاء المارقين المبطلين الذين تسموا بالمرابطين فادعواهم إلى إمامة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم...»⁽³⁾.

(1) السلاوي (1/ 126 - 127).

(2) أعز ما يطلب ص (26).

(3) المعجب ص (282).

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارئ لكتاب أعز ما يطلب يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوي الباطلة ضدهم، بل انه قد أفرد فصولاً خاصة منه لهذا الغرض⁽¹⁾.

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم فأخذوا بالتصدي لها حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي الصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعاية بل انه كثف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائله التي وجهها لهذا الغرض «واعلموا وفقكم - يعني أتباعه - أن المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم، أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين فلا تلتفوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله».

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية التي أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على هدى من سنة رسول الله ﷺ - فقد طعن في عقيدتهم ووصفهم بأنهم مجسمون وكفار لا تجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم، ولهذا قاتل الموحدون المرابطين، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين منحى فكريا عقديا غالى فيه حتى أصبح العداء للمرابطين اتجاها فكريا واضحا عند ابن تومرت وأتباعه المخلصين لدعوته. ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أثر على معنوياتها، ثم على كيانها السياسي وذلك لأن كثيراً من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة، والسعي إلى إسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها⁽²⁾.

(1) من هذه الفصول على سبيل المثال (باب في بيان طوائف الملتزمين والمجسمين).

(2) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب ص (181).

وتساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونها مسوغ شرعي، حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئاً من مطامحه مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت حيث البسه لباساً دينياً حتى أصبح اتجاهها دعويّاً واضحاً في دعوته، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ بن تومرت - أنه كان يعظ تلاميذه وأنصاره في كل وقت «... ومن لم يحظر أدب فان تمادى قتل، وكل من لم يحفظ حزبه عزز بالسياط، وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط بالمرة والمرتين فان ظهر منه عناد وترك امثال الأوامر قتل ومن داهن.. قتل».

كما ذكر كل من البيدق⁽¹⁾ وابن القطان⁽²⁾، وغيرهما من المؤرخين⁽³⁾، أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك في ولاءه لدعوته، وقد ذكر لنا البيدق وصفاً لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة 524هـ حيث قال: «أمر بالميز فكان البشير⁽⁴⁾ يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً، وازداد الذين آمنوا إيماناً وذاق الظالمون النار، فظنوا مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل...»⁽⁵⁾.

وكانت مخادعة ابن تومرت للناس في قضية التمييز باتفاق مع الونشريسي حيث طلب منه بن تومرت أن يخفي علمه وحفظه للقرآن ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

(1) انظر: أخبار المهدي، تحقيق عبد الحميد حاجيان ص (71-72).

(2) نظم الجمان ص (102-104).

(3) كابن الأثير، وابن خلدون، وابن العماد، والسلاوي.

(4) هو أبو عبد الله بن محسن الونشريسي.

(5) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (568).

قال الذهبي: (فلما كان عام تسعة عشر وخمس مئة، خرج يوماً فقال: تعلمون أن البشير - يريد الونشريسي - رجل أُمي، ولا يثبت على دابة، فقد جعله الله مبشراً لكم، مطلعاً على أسراركم، وهو آية لكم، قد حفظ القرآن، وتعلم الركوب، وقال: اقرأ، فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصاناً وساقه، فبهتوا، وعدوها آية لغباوتهم، فقام خطيباً، وتلا: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾، وتلا: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾، فهذا البشير مطلع على الأنفس، ملهمهم، ونيبكم ﷺ يقول: (إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم)⁽¹⁾ وقد صحبنا أقوام أطلعه الله على سرهم، ولا بُدَّ من النظر في أمرهم، وتيمُّم العدل فيهم، ثم نوذي في جبال المصامدة: من كان مطيعاً للإمام، فليأت، فأقبلوا يهرعون، فكانوا يُعرضون على البشير، فيُخرج قوماً على يمينه ويعدُّهم من أهل الجنة، وقوماً على يساره، فيقول هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يؤتى بالرجل منهم، فيقول: هذا تائب ردُّه على اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، وانفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفرُّ منهم أحد، وإذا تجمع منهم عدة، قتلهم قراياتهم حتى يقتل الأخ أخاه...)⁽²⁾.

قال شعيب الأرنؤوط في استدلال ابن تومرت بحديث رسول الله ﷺ (إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم) في الونشريسي بأنه ملهم: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طوبته، وجراسته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيدة ابن تومرت الذي اتخذ مطية لأطباعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه...)⁽³⁾.

(1) البخاري (42/7) رقم 3689.

(2) سير أعلام النبلاء (19/546).

(3) الذهبي سير أعلام النبلاء (19/546).

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها، وذلك بسبب ما تحمله من غلو وشطط، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته⁽¹⁾، ولما حل ابن تومرت تينمل، أو اه أهلها وأعلنوا طاعتهم له، لكنهم كانوا كثيري العدد واقري العدة، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عدداً كبيراً من الرجال حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذه الحادثة خمسة عشر ألف رجل⁽²⁾، ولكي لا تحدث هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه، أو تلقى معارضة عند الناس، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم، ويدعو إليه، فقد ذكر المؤرخون أنه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنه في المقابر وهم أحياء حيث يترك لهم مكاناً للتنفس، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم، وليشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله - ﷺ - وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه، ويشهدون له بصحة ما يدعوا إليه ويعظم اعتقادهم فيه، وتتأكد طاعتهم له، أما أولئك المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التي من أجلها قبوروا يستبيح دمائهم حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكي لا يفشوا سره بعد ذلك⁽³⁾.

هذه صورة وأمثلة للأعمال التي قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقربين إليه، ولا شك أن هذا العمل يعد في نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب حتى ولو كان المقتول شخصاً

(1) انظر: الدعوة الموحدية لعبد الله علام ص (191، 192).

(2) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (6/ 563).

(3) انظر: الفتاوى (477/11).

واحداً، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعية إلى الله بل مهدياً معصوماً؟!⁽¹⁾.

وإني لأستغرب من الدكتور عبد المجيد النجار في تسمية كتابه «تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت» وكان الأولى به أن يسميها تجربة الإفساد والتدمير في حركة المهدي بن تومرت ومن العجب أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي جعل كتاب الدكتور عبد المجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدول والشعوب والحركات.

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (569) لقد استفدت من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس، في مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة بن تومرت.

المبحث الخامس

المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

أولاً: المنهج التربوي:

جعل ابن تومرت منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً في دعواته، ولذلك اجتهد في محاربة المنكرات التي انتشرت بين عوام الناس بكل ما يملك من قوة ووجه سهامه نحو الفقهاء والعلماء للتقليل من هيبتهم، وإضعافهم ليتسنى له أن ينشر عقيدته المختلطة، ويؤصل ما يريد من الأحكام والأقوال على النهج الذي يخدم أهدافه ولذلك نجده عندما استقر في منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين:

1- التربية العقديّة الروحية:

استغل ابن تومرت جعل أتباعه من البدو والأميين الذين لا يستطيعون أن يفهموا الشريعة من أصولها المعتمدة وكتب لهم شيئاً في العقائد والعبادات بعضها باللسان البربري وبنى مكاناً للعبادة ولتعليم الطلبة على منهجه الذي رسمه وتربيتهم عليه.

قال ابن خلدون: (فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسةائة، وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت إليه الطلبة والقبايل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري)⁽¹⁾.

وألزم أتباعه بحفظ شيء من القرآن والحديث النبوي وتعلم المرشدة واستيعاب

(1) ابن خلدون (6/227، 228).

حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام، وتحقيق أحكام العبادة وكان يوزع أصحابه في حلقات كل عشرة يكون مسؤولاً عليهم أحد الطلبة الناهيين، ونهج منهج الشدة في التعليم والتربية وحدث أحكاماً تبلغ إلى الضرب بالسياط لمن يظهر منه التهاون في حضور الأوقات أو في حفظ ما يطلب منه حفظه⁽¹⁾.

وكان هذا المنهج يسود جميع أفراد المجتمع الجديد أما من برز في العلم من أصحابه فألف لهم كتباً ورسائل خاصة وهي كتب ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلي على العقيدة التي جمعها من مذاهب شتى وفرق عدة.

واهتم بالجانب الروحي واعتمد في تربيته لأصحابه على التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في الآخرة، والإعداد للجهد في سبيل الله طلباً للشهادة، ومما خاطب به أتباعه في ذلك قوله: «ولا تنازعوا ولا تغتروا بالدنيا فإنها وكل من عليها فان واحذروا من مكرها وتقلب أحوالها.. وتزودوا منها إلى دار الآخرة واستعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزاً عظيماً...»⁽²⁾.

2- التربية الاجتماعية:

وبعد أن حرص على بناء الأفراد علمياً وروحياً شرع في بناء المجتمع الجديد على أسس من التعاون والتناصر والتأخي وجعل أهل جبال أطلس في تينملل الأنصار ومن جاءهم من غيرهم المهاجرين وقعد قواعد في هذا المجتمع للتأخي والتعاون وإغاثة المظلوم، واحترام الممتلكات، حمل عليها الكافة ووضع تعازير قاسية لعقاب من يتعداها وربط المجتمع الجديد بوشائج القرى بين القبائل المختلفة بطريق المؤاخاة بينها أو بطريق المصاهرة المتبادلة وخاطب قيادة مجتمعه الجديد بقوله: (ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصاة الذين عنى النبي ﷺ بقوله: «لا يزال أهل المغرب

(1) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (26، 27).

(2) ابن تومرت: رسالة إلى الموحدين ص (9) نقلا عن كتاب عبد المجيد النجار ص (116).

ظاهرين»⁽¹⁾، وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدجال، ومنكم الذي يؤم بعيسى، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به...⁽²⁾.

ويصف الأمير عزيز في كتابه (أخبار القيروان) المجتمع الموحيدي (لهم توذد وأدب وبشاشة، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولا يخلون يوماً من طرادٍ ومثاقفة ونضال...) ⁽³⁾.

ويصف بن خلكان محمد بن تومرت فيقول: (قبره بالجبل معظم، مات كهلاً، وكان أسمر ربعةً، عظيم الهامة، حديد النظر مهيباً، وآثاره تعني عن أخباره، قدم في الثرى، وهامة في الثريا، ونفسُ ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيّا، أغفل المرابطون ربطه وحلّه، حتى دبّ ديبب الفلق في الغسق، وكان قوته من غزل أخته رغيفاً بزيت، أو قليل سمن، لم يتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا، رأى أصحابه يوماً، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بإحراق جميعه، وقال: من أراد الدنيا، فهذا له عندي، ومن كان يبغى الآخرة، فجزاؤه عند الله، وكان يتمثل كثيراً:

تجرّد من الدنيا فإنك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرّد⁽⁴⁾

ثانياً: المنهج السياسي:

حرص بن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد والوعظ، ولذلك اتصل بالأمرء وولات الأمر في المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ويمثلهم المسؤولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من

(1) انظر: فتح الباري (13/ 295) الطبعة السلفية.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (19/ 549).

(3) الذهبي سير أعلام النبلاء (19/ 549).

(4) وفيات الأعيان (5/ 54).

محاربة المنكر ونشر المعروف وتوّج أمره بنصح أمير المسلمين علي بن يوسف ونبهه إلى انتشار المنكرات ووعظه وأغلظ له القول وقال له (إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها، غير أنني أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسئول عنه، وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسئول عنه)⁽¹⁾.

وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن «خلع مبايعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه، وأعلن الجميع بخلعه»⁽²⁾، وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير في سبيل ثلاثة، حملة نقدية للمرابطين، وإقامة تنظيم سياسي، وتعبئة نفسية للأنصار:

1- الحملة النقدية ضد المرابطين:

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين، ومحاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسخاً نهائياً وترسيخ ولائهم له: «فكل من أطاعهم في معصية الله وأعانهم على ظلمهم في سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم، وكلّ من أعانهم من القبائل فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسنة وترك معونة المجسمين والمرتدين والمعتدين، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السنة وأعانوهم على جهاد الكفرة فخلّوا سبيلهم وهم إخوانكم في دين الله وسنة رسوله، وإن عاندوا الحق وأصرّوا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم»⁽³⁾، وشن حرباً نفسية على حكام

(1) تاريخ الدولتين للزركشي ص (121).

(2) نظم الجيآن لابن القطان ص (29).

(3) رسالة إلى الأتباع لابن تومرت ص 2.

وأمرء وأتباع المرابطين في رسالته إليهم «إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمان، الفئة الباغية، والشردمة الطاغية لثونة، أما بعد قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته، وان الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجود السنة، فإن أدبتموها كنتم في عافية، وإلا فستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خالياً، والجديد بالياً، وكتبنا هذا إليكم أذاراً وإنذاراً، وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى»⁽¹⁾.

وهكذا شرع بن تومرت في توجيه حملة نقدية إلى دولة المرابطين ووسع نطاقها واستهدف بها كافة الناس من أهل المغرب موالين أو معادين وحاول أن يعزل الحكام عن عامة الناس بفضح سياستهم، وتضخيم أخطائهم، تنفيراً للنفوس منهم وتمهيداً لنتزع ولائهم ثم لمعاداتهم وإمعاناً منه في تهجينهم وتشويه صورتهم اختراع الألقاب المشينة ورماهم بها كالمجسمون) و(الزراجنة) تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجان لأنهم بيض الثياب سود القلوب، و (الحشم) لاتخاذهم اللثام كما يتخذها الحشم⁽²⁾.

2- التنظيم السياسي:

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكيلاً سياسياً بحيث يضم وينظم ويرتب جميع أفراد الدولة حتى يضمن ويعمق ولائهم للدعوة ويمكن مراقبتهم والإشراف عليهم ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتها الملقاة على عاتقها. وقد بلغت طبقات الموحدنين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة. كانت

(1) رسالة لابن تومرت ضمن الحلل الموسوية لابن الخط.

(2) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (85).

الطبقات الثلاثة الأولى، أهم هذه الطبقات، من حيث انتفاء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشائخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحدين وتسيير دفة الحكم. أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية⁽¹⁾. وقد جعل الدكتور عبد المجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة أساسية وبين مهماتها التي أنيطت بعهدتها:

الجهاز الأول: جهاز سياسي، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين.

الجهاز الثاني: جهاز علمي ثقافي، ويشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

الجهاز الثالث: جهاز عسكري، ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة والغزاة.

والجهاز الرابع: جهاز شعبي، يضم مجموعة من القبائل وهي: هرغة، وأهل تينمل، وجدميوه، وجنيفيسة، وهنتاتة، وأهل القبائل⁽²⁾ قال ابن الخطيب: (لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر، لا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده⁽³⁾).

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معالجة تقوم على التخصص ضماناً للمزيد من النجاح واجتئاباً للعفوية والفوضى، وقد كانت المهام الكبرى المطروحة على هذه الجماعة مهام ثلاثة: مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسي للجماعة الناشئة، وهي التي تكفل بها الجهاز الأول. ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادئ

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (40).

(2) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت ص (120 ، 121).

(3) الحلل الموشية لابن الخطيب ص (80).

العقدية التي قامت عليها الدعوة، وهي التي تكفل بها الجهاز الثاني، ومهمة دفاعية تتعلق بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها وهي التي تكفل بها الجهاز الثالث.

أما الجهاز الرابع فيبدو أنه وضع لخصر الأتباع وإحكام ارتباطهم، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية، فيكون بدور ما نسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة. وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله: «أهل الجماعة للتفاوض والمشورة.. وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل للدفاعة العدو»⁽¹⁾.

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم في فكر محمد بن تومرت ولذلك أسس بديلاً سياسياً اجتماعياً تربوياً ليحل محل النظام السياسي والاجتماعي والتربوي في دولة المرابطين⁽²⁾.

لقد اظهر ابن تومرت في منهجه السياسي ملكة تنظيمية كبرى، وقبض بيد من حديد على أنصاره، فأعطى مجلس العشرة سلطاناً كبيراً وحكمهم في الناس، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبائل، وسيطر بواسطتهم على القبائل، وجعل الجميع عيوناً له بعضهم على بعض، يوافقونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء مما جعل ابن تومرت مطلعاً على أمور مجتمعه الجديد وأصبح مطاعاً ومرهوباً في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقاً، وتحاف منه خوفاً شديداً...⁽³⁾.

3- تعبئة الأنصار:

كانت مهمة بن تومرت صعبة جداً حيث أنه استهدف دولة عرفت بجهادها في الصحراء الكبرى وفي اسبانيا وكان لها الفضل بعد الله في توحيد المغرب الأقصى مع

(1) نفس المصدر ص (122).

(2) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت ص (122).

(3) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ص (181).

الأندلس واشتهر حکامها بالصلاح والعدل والجهاد وحب الخير لعموم الأمة ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم أنهم على درب الحق، وأن خصمهم على درب الباطل واعتمد في تعبته لأنصاره على:

أ- غرس الثقة في نفوسهم وبأنهم على الحق:

ولذلك خاطبهم بقوله: (ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصاة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولا يزال الأمير فيكم إلى قيام الساعة...) (1).

وحرص بن تومرت على رد كل ما يوقع في نفوس أصحابه من الوهن من طعون المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التي أصبحوا من أنصارها، فكان لا يكمل ولا يميل في تنفيذ كل ما وجهه المرابطون من حملة مضادة ضد دعوته البدعية وقاد بن تومرت حملة دعائية مضادة، ومن ذلك ما خاطب به أصحابه قائلاً: «واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكّارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله، وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله... فانتبهوا وفقكم الله هذه الخيل التي يجتالون بها على عيشتهم وديناهم حتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها وحرّفوا الكلام عن مواضعه. ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد وأتباع السنة إلى الخلاف وسموه مخالفاً ببيغهم...» (2).

(1) المعجب للمراكشي ص (256 ، 257).

(2) رسالة إلى الأتباع، وأيضاً الرسالة المنظمة ص (108).

لقد استطاع بن تومرت أن يقنع أتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة والتي تقيم أمر الله وتجاهد في سبيله وشحن بذلك النفوس، واقنع العقول، وأخذ خطوة أخرى لتعزيز مكانته وبسط هيمنته على أتباعه وزعم بأنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم.

ب- الثقة بالإمام:

وسلك مسالك متعددة من أجل إقناع أصحابه وأتباعه بأنه المهدي المعصوم، فحرص على الظهور بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص، فزهد في متاع الدنيا من مأكلاً وملبساً ومسكناً، ثم جعل ثقة أنصاره به ذات اتجاه عقدي بحيث تمنع نفوس الأتباع من الضعف والتراجع أمام أوامره وتوجيهاته، فأقنعهم بأنه الإمام المنتظر والمهدي المعصوم وبأن نسبه يرجع ضارب في أعماقه في آل البيت المطهر، وبذلك استطاع بهذه التعاليم المتعاقبة بالإمامة أن يرشح ثقة أتباعه به، وأن يضمن ولائهم الدائم، وطاعتهم المطلقة⁽¹⁾، ولم ينسى أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى إنشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقصى، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة. وأقنعهم بأنه القيادة المثلى لهذه القبائل⁽²⁾.

4- المنهج العسكري:

وبعد أن نظم صفوفه وأحكم تنظيمه، اصعد إنذاره وتهديده إلى المرابطين: «قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كتتم في عافية، وإلا فاستعين بالله على قتلكم...»⁽³⁾. وكانت هذه الخطوة

(1) تجربة الإصلاح في حركة بن تومرت ص (127).

(2) انظر: معالم في تاريخ المغرب د. حسين مؤنس ص (177).

(3) الحلل لابن الخطيب ص (81).

تمهيداً منه نحو قتال المرابطين، وحرص على ترسيخ عقيدة الجهاد وحيه لجنوده، وأقنعهم بأن جهاد المرابطين فرض عليهم، كما فرض على الصحابة جهاد الكفرة «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة المثلثين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر لا عذر لأحد في تركه ولا حجة له عند الله، فإنهم سعوا في هدم الدين، وإماتة السنة»⁽¹⁾.

ولما بذل بن تومرت جهده في إعداد أصحابه إعداداً عقدياً جعل يعد العدة المادية، فجعل يجمع المقاتلين متخيراً الأقوياء الصادقين وتخلص من كل من شك فيه في صفوفه ومن أعالي جبال الأطلس واصل بن تومرت حملته الإعلامية التشويحية على المرابطين واصفاً إياهم بأقذع الأوصاف فاضطر الأمير علي بن يوسف أن يسئل الحسام لإخاد تلك الفتنة، فوجه إليه وزيره يتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه إلا أن ذلك الجيش رجع بدون قتال واستغل بن تومرت ذلك وجعلها منة من الله عليهم وما فعله يتان في حقيقته هروباً وخوفاً من لقاء الموحدين وتعاضم خطر بن تومرت واستمر علي بن يوسف في إرسال الحملات تلو الحملات لاستتصال شأفته ولكن جميعها كان مصيرها الفشل والهزيمة ومن هذه الحملات حملة أبي إسحاق إبراهيم الذي وجهه إليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام بن تومرت دون قتال وتعقبته القوات الموحدية وقتلت أعداد كبيرة منهم وغنموا حملتهم. وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدي اللمتوني الذي أضاف هو أيضاً هزيمة إلى سجل الهزائم المرابطية على يد الموحدين⁽²⁾، وكان بن تومرت يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: «انظروا إلى أعدائكم، واعلموا أن كل ما جاءوا

(1) الرسالة المنظمة ص (105).

(2) انظر دولة المرابطين تأليف سلامة محمد سلمان ص (113).

به من خيل وعدة، إنما هو هدية من الله تعالى لكم، على غربتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم»⁽¹⁾، وكان ينزل في المعارك بنفسه ويبدو أن بن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية، فقد تمرس بالقتال في الميدان وتعرض في كثير من الأحيان إلى السقوط في خضم المعركة، كما تعرض إلى جراحات السيوف وكثيراً ما كان يشير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقبي العالية، وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة.

ولكي يكون بن تومرت وعسكره في منعة من مباغته الجيش المرابطي اتخذ عاصمة له مقراً منيعاً هو مدينة تينملل التي قال ابن الخطيب في وصف منعتها: «لا يعلم مدينة أحصن منها، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها، وهو الطريق إليها من مراکش، المصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد»⁽²⁾.

لقد كانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدون أثرها الكبير في ذيوع عقيدة المهدي وظن كثير من الناس بأنه بن تومرت وبذلك كثر أتباعه، وعظم ثقته بنفسه وقوته، فأرسل إلى علي بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها تهديد ووعيد، فيما يلي نصها: «من القائم بدين الله العامل بسنة رسول الله محمد بن عبد الله وفقه الله، إلى المغرور بدينه علي بن يوسف، أما بعد فأنا ما وجدنا لأكثركم من عهد، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تحشوا عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذي غووا فأصبحوا نادمين، فنبعهم الناس أجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله باد حاض حجة الظالمين، ودعاء الناس إلى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين لا تغتروا فان المسلمين إليكم قادمون، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله،

(1) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين د. حمدي عبد المنعم ص (101).

(2) انظر: تجربة الإصلاح في حركة بن تومرت ص (129).

وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنون بلا اله إلا الله، وإنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال وما لكم فيء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن»⁽¹⁾ لقد كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان حرب بين الموحدين والمرابطين.

إن الذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش النصرانية في الأندلس، وتعبت بين القينة والفينة في أحواز طليطلة وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب.

يبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت في صنع هذه الهزائم، منها الاستراتيجية العسكرية التي اتبعتها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين، وقد ساعدته وعورة أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة. كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج إلى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة، بينما كان ابن تومرت وأتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجند المرابطي منهارة، فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته، وهو يسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه، بعد ما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وانه هو المهدي. كل هذه الأمور كانت تجعل من الجندي المرابطي

(1) أخبار المهدي بن تومرت للبيدق ص (11).

مضطرب النفس متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام⁽¹⁾.

وازدادت ثقة بن تومرت بنفسه بعد تحقيقه تلك الانتصارات، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته وأما القتال مهدياً ومتوعداً من عدم الانقياد له، ومما جاء فيها: «إلى القوم الذين استزهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية اللمتونية أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة فإن أدبتموها كنتم في عافية وإلا فنستعين بالله عليكم على قتالكم حتى نمحو آثاركم ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خالياً والجديد بالياً، وكتابنا هذا إليكم أعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السنة لإسلام الرضى»⁽²⁾.

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وقد ارتكزت استراتيجيته في هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة.

فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره مكبدة إياها خسائر فادحة.

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد أن يظهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له فأوعز في عام 519هـ/ 1125م لصديقه الحميم الونشريشي - الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم أن يظهر ما لديه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن

(1) انظر: دولة المرابطين ص (114).

(2) انظر: دولة المرابطين ص (115).

تومت وكان الونشريشي باتفاق مع ابن تومت قد حفظ أسماء من شعر أنهم يشكون في مهدية بن تومت، وكان أيضاً ابن تومت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين فدفعها إلى الونشريشي فحفظها. وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريشي (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علماً وحكمة، فاختره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومت بالمهدية. ثم قال اعرض علي أصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله تعالى ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي، وكان المهدي قد وضع فيها رجلاً لهذا الغرض فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر، وبعد أن وهل على رأسها قال: «يا ملائكة الله أن عبد الله الونشريشي قد زعم كيت وكيت» فقال من فيها صدق، فصدقه الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مقدسة. وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها.

ونادى ابن تومت في أهل الجبل للحضور للتمييز، وأخذ الونشريشي يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر⁽¹⁾، فيقول هذا من أهل الجنة. ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل إنهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومت على نفسه وأصحابه واستقام أمره⁽²⁾.

وعلم ابن تومت أن الباقين من أهل وأقارب المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش إليهم واغتنام أموال المرابطين، فسرههم ذلك وسلاهم على أهلهم، ثم نديهم إلى قتال المرابطين وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومت على معاقل

(1) الغمر: هو الغير المجرب.

(2) انظر ابن خلكان (6/52 - 53).

المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراکش. وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف، وسبب ذلك يعود أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية. فالوصول إلى أسوار مراکش لم يتم بسهولة بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون وحصنوها بالقلاع، على أي حال صمم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراکش، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت وقد استعدت للقتال وتجمع منهم نحو أربعين ألفاً منهم الفرسان والغالب منهم رجالة وقدم عليهم الونشريشي ووجههم نحو مراکش فبدأوا بالزحف نحوها عام 521هـ/1127م. وقبل وصولهم إلى أسوار مراکش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم.

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراکش مدة أربعين يوماً على أرجح الروايات⁽¹⁾. وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصار الواقعة التي خرج فيها أمير المسلمين علي يوسف لفك الحصار عن عاصمته ولكنه لم يوفق وتشتت شمل جيشه، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراکش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع. لقد أخذت الغيرة القائد عبد الله بن همشك الذي كان مع أصحابه الأندلسيين المئة محصوراً داخل المدينة، فخطب أمير المسلمين قائلاً: (ما نغير إلا بالمقام تحت الحصار). فأوضح إليه أمير المسلمين أن قتال المصامدة ليس مثل قتال النصراني، فأكد إليه ابن همشك بأنه يعرفهم لوجود نخبة منهم في الأندلس، وبين لأمر

(1) انظر: دولة المرابطين ص (118).

المسلمين أنه ما زال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة، وإن البقاء على هذا الحال لا يكون إلا مع قلة العدد، ثم عرض رغبته عليه بأن يعطيه ثلاثمائة فارس ليخرج بهم فسمح له. وقبل خوضه للمعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده لتلائم مع طبيعة المعركة المقبلة، فرأى أن يقصر وراحهم، ثم برز للموحدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمائة رأس من رؤوس المصامدة فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار⁽¹⁾، وأرسل أمير المسلمين علي بن يوسف رسائله إلى سائر ولاته وقواده طالبا المدد والعون، فجاءت إليه النجيدات من كل صوب، وكان أعظمها القادم من سلجاسة بقيادة واليها وانودين بن سير. وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجيدات، وقدم أبو محمد بن سير قائداً عاماً للقوات المرابطية، وقيل قدم الزبير بن علي بن يوسف⁽²⁾.

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعتة بالسنان. فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع إليه، فرد أمير المسلمين عليهم محذراً إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجيب أي طرف للآخر.

وأخذ الونشريشي القائد العام للقوات الموحدية وعبد المؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة. وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريشي، فخلفه عبد المؤمن في قيادة الجيش. ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم استندوا ظهورهم إلى بستان هناك، والبستان عندهم يسمى البحيرة⁽³⁾، وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ففر عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربعمائة ما

(1) انظر: دولة المرابطين ص (119).

(2) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ص (188).

(3) انظر: الكامل في التاريخ (6/ 565).

بين فارس وراجل. وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريشي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها لأن عبد المؤمن كان قد واراها فوراً فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء⁽¹⁾.

وتابع عبد المؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينملل. وعندما وصل إلى هيلانة⁽²⁾ استعاد أنفاسه وحشد جنوده وأعاد الكرة على مراكش فهزم أيضاً وقتل من أتباعه نحواً من اثني عشر ألفاً فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه إلى تينملل وكان اليبذق قد سبق عبد المؤمن إلى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبد المؤمن فقال هو حي، فرد معزياً الأمر بآق، وأوصاهم بعدم الجزع.

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم: سير بن ورايل، ومسعود بن وزتيغ، ويحيى بن سير ويحيى بن كانجان إلى تينملل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين. وتقابل الطرفان بموقع يقال له أكبر متاع بني كوربيت، إلا أنه لم يحدث قتال بينهما. ويعلل اليبذق⁽³⁾ ذلك بأن المرابطين قد حلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين التي تدفقت عليهم النجدات من هتانة وكنفيسة ومزاة فرجعوا إلى مراكش.

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بابن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان حليفه الله... وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي وعلى الرغم من كل الجهود التي بذها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته

(1) ابن خلكان (53/5).

(2) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن في القرب من مراكش.

(3) أخبار المهدي بن تومرت ص (39-41).

تساور نفوسهم. عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته. فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في قتال عدوكم فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق»، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة. ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم، وطلب منهم أن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سوياً إلى قبول قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون. ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً: يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عز وجل. فقالوا: وجدنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذهلب الناس وعادت ثقتهم بالمهدي، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم، لأنه خشي أن يخرجوا فيذيعون سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه⁽¹⁾.

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي منيت بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي سخر حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة.

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام 524هـ، 1130م⁽²⁾ وتذكر

(1) انظر: دولة المرابطين ص (122).

(2) انظر: نفس المصدر ص (122).

المصادر الموحدية انه لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم واعدأ إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذراً إياهم من الفرقة والتناحر، وأمر عليهم عبد المؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعاً لربه⁽¹⁾.

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلماً إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة. ولما اشتد عليه مرضه قدم عبد المؤمن بن علي للصلاة وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينمل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن علي وصلى عليه، ودفنه سرأ بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها إلا في عام 527هـ/ 1132م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي⁽²⁾.

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشعر لها الأبدان حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة.

لقد كان بن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء واستغلاله كل الفرص، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيماً ومرشداً روحياً لها، وليدفع بقبيلته مصمودة إلى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف.

(1) نفس المصدر ص (122).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/ 781).

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادة في ذلك الوقت. فقد كان على قسط وافر من العلم، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي ليتتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه. كما مكنته تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم، فيساعده في ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخصوم، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله وأملى عليها ما يريد فانقادت له مبهورة.

لقد ساعد ابن تومرت في تحقيق أهدافه سداجة المجتمع وجهله وما عشعشت في ذهنه من الأساطير وانحرافات حتى عاد غريباً عن منهل الإسلام الصافي، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكاً بعلائق الجاهلية مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة فتقبلوها دون نقد أو تمحيص، وقدموا أرواحهم دفاعاً عنها بعد أن أوهمهم أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً.

ومن اقتراعات ابن تومرت انه ادعى انه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وإن من لا يؤمن بمهديته فهو كافر وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه⁽¹⁾، وأحدث في آذان الصبح (أصبح والله الحمد)، وتناول وادعى أنه يعلم الغيب⁽²⁾.

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لا يمكن أن تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها لقد وصفه بحق لفيق من المؤرخين بأنه متحل ومبتدع، وانبرى له شيخ الإسلام ابن تيمية بهدم عقيدته بمعاول الحق والحجج والبراهين وقد بينت ذلك⁽³⁾.

(1) انظر: دولة المرابطين ص (124).

(2) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ص (216).

(3) انظر: الفتاوى (492/11).

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهاديته انه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلناً في مدينة مراکش من فوق منبر مسجدھا بطلان عقيدة المهدي بن تومرت لارتكازھا على الزيف والخداع، كما أسقط من السكة ومن الخطبة، وقال لا ندعوه بالمهدي، وكتب بذلك إلى الآفاق⁽¹⁾، وبناء على هذا الإعلان حذف اسم «المهدي» من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ«القرآن حجة الله» في المركز، وفي الهامش نقش اسم «خليفة الموحدين المأمون»⁽²⁾، إن عقيدة أهل السنة والجماعة الضاربة في أعماق أهالي الشمال الأفريقي حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها * فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض... *.

إن حركة بن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفاً أسمى لوجودھا، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مراکش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق الفونسو السادس وبذلك أخرجوا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي بن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدأوا يلتمسون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى في هذا الوقت استطاع بن تومرت بواسطة المؤمنين بمهاديته أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج

(1) انظر: دولة المرابطين ص (125).

(2) مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقيا والأندلس ص (191) رسالة ماجستير.

ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس
أضحى وشيكاً¹.

إن رجال الإصلاح في تاريخنا الإسلامي هم الذين ساروا على منهج أهل السنة
والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات أما الذين كذبوا وسفكوا الدماء
وهتكوا الأعراض، وكفروا المسلمين الأولى بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير
والإفساد، وإنها لمغالطة تاريخية وخيانة للأمانة العلمية عندما نضفي على المفسدين
ثوب الإصلاح ونجعلهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام إن حركات الإصلاح في
التاريخ الإسلامي هي التي التزمت بكتاب ربها وسنة نبيها واستوعبت فقه التمكين
وأخذت بأسبابه وحرصت على تنفيذ شروطه جديرة بالدراسة الواعية من أجل إخراج
فقهاً للعاملين في مجال الدعوة الإسلامية وأنها لكفيلة بربط الحاضر بالماضي وجديرة
بإثراء واقعنا بفقته بناء الدول وأسباب النهوض وعوامل السقوط وكيفية الأخذ
بأسباب النجاح واثقاء المزالق.

(1) انظر: دولة المرابطين ص (126) لقد استفدت من كتاب تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن
تومرت للأستاذ عبد المجيد النجار ودولة المرابطين للأستاذ سلامة محمد سلمان الهرفي في
مبحث المنهج التربوي والسياسي والعسكري عند بن تومرت وغيرها من المراجع وهذا للأمانة
العلمية.

الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وأبناءه وأحفاده

المبحث الأول

عبد المؤمن بن علي

أولاً: اسمه ونسبه:

عبد المؤمن بن علي بن عَلَوِي، سلطان المغرب الذي يلقب بأمر المؤمنين، الكومي، النفيسي، المغربي.

ولد بأعمال تَلْمِسان. وكان أبوه يصنع الفخار⁽¹⁾.

قيل: إنه قال: أعني عبد المؤمن: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مُضر بن نزار، ولكومية علينا حق الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أحوالي⁽²⁾.

وكان الخطباء إذا دَعَوْا له بعد بن تومرت، قالوا: قسيمُهُ في النسب الكريم، وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربع مائة⁽³⁾، وصفه الذهبي فقال: (وكان أبيض جميلاً، ذا جسم عَمَمٍ⁽⁴⁾، تعلوه حمرة، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوري الصوت، فصيحاً جَزَل المنطق، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة، وكان في كبره شيخاً وقوراً، أبيض الشعر، كثَّ

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (366 / 20).

(2) نفس المصدر (366 / 20).

(3) نفس المصدر (367 / 20).

(4) عِظْمُ الخلق في الناس وغيرهم.

اللحية، واضح بياض الأسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شَن الكفّ، أشهل العين.

أ- لقاءه بمحمد بن تومرت :

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهتاني صادف عبد المؤمن، فحدّثه ووانسه، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: أطلب العلم. قال: قد وجدت طلبتك. ففقهه، وصحبه، وأحبه، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النبيل⁽¹⁾ وكان بن تومرت يمدحه بهذه الأبيات:

تكاملت فيك أوصاف خُصِصت بها فكلنا بك سرور ومغتبطُ
السن ضاحكة والكف مانحة والنفس واسعة والوجه منبسط⁽²⁾

وكان بن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلابّ الدول لقد كان بن تومرت يعمل على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعدّه الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة وعلمه ودربه وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن في كل ما يقول وأن يقتدوا به في كل ما يفعله وكان عبد المؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب، فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس⁽³⁾.

ب- بيعته:

بايع أصحاب ابن تومرت المقربين عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان 524هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة الخاصة، لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (20/367، 368).

(2) انظر: النجوم الزاهرة (5/363).

(3) انظر: موسوعة المغرب العربي للغنيمي (3/203، 204).

من ستين ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة قيل في 20 ربيع الأول سنة 526هـ وقيل 527هـ وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص بن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة إلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته⁽¹⁾. وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته أشار فيها إلى توليه عبد المؤمن من بعده: (استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة عمر أرتاج، وعمر إيتي، وعبد الله بن سليمان، فحمد الله، ثم قال: إن الله - سبحانه، وله الحمد - منّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصّكم بحقيقة توحيد، وقيض لكم من أفاكم ضلّالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون قد فشيت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، فهداكم الله به ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجددوا لله خالص نياتكم، وأزوه من الشكر قولاً وفعلاً مما يزكي به سعيكم واحذروا الفرقة وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم، وإن لم تفعلوا شملكم الذل، واحتقرتكم العامة وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً بعد أن بلوناه، فرأيناه ثباتاً في دينه، متبصراً في أمره، وهو هذا - وأشار إلى عبد المؤمن - فاسمعوا له وأطيعوه ما أطاع ربه فإن بدل ففي الموحدين بركة وخير، والأمر أمر الله يقلده من يشاء. فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت)⁽²⁾.

وقال بن خلكان⁽³⁾: ما ستخلفه بل أشار إليه وما قاله الذهبي نقله عن عبد الواحد

المراكشي⁽⁴⁾.

(1) انظر: تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم (208/4).

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (369/20).

(3) انظر: وفيات الأعيان (239/3).

(4) انظر: المعجب ص (285، 287).

كما أن هناك سبباً آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبد المؤمن ألا وهو أن عبد المؤمن، كومي وليس من المصامدة وهذا يجعل حداً لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقعها محتملاً بين قبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

وما أن أعلنت طبقة الجماعة، وفاة ابن تومرت وبيعته لعبد المؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها ولذلك لم يستطيع بادئ الأمر، أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبيت في حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن وكان الموحدون الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه، فهم لم يتركوا لعبد المؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن يتفرد في قرارات الحكم بل نجدهم يناقشون ويتقدون أعمال عبد المؤمن ويتجرؤون عليه وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبد المؤمن، لما جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس في المكان المخصص له. فما كان منه إلا أن غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له، فثار بأخي عبد المؤمن الخليفة وقتله. ولما غضب عبد المؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك⁽¹⁾. ويروي البيهقي هذا الحادث ضمن أخبار سنة ستة وثلاثين وخمسة (536هـ) فيقول: «وفيها جاء إبراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد وأعطاه الخليفة الخيل والعييد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فتغابروا إبراهيم أخو الخليفة مع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقتله محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقام له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكك وقالوا له: ألم يقل المهدي: بأن الجماعة وصيانتهم عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت عند ذلك الخليفة..»⁽²⁾.

(1) انظر: سقوط الموحدين ص (51، 52).

(2) أخبار المهدي للبيهقي ص (93).

لقد أسرها عبد المؤمن في نفسه وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت ووضع نظاماً جديداً يكرس الولاء لشخصه وأسرته وسنرى ذلك بإذن الله ويبدو أن عبد المؤمن لا يعتقد اعتقاداً راسخاً في عصمة ابن تومرت ومهديته وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه بن تومرت بعد أن مهد لذلك وجعل الزمن جزءاً من هدفه.

لقد كان الظلم في تعاليم بن تومرت واضحاً هذا خليفة الموحدين يقتل أخاه ويمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة وكل من في الأرض عبيد لهم، لاشك أن ذلك الحدث أثر في عبد المؤمن بن علي.

ثانياً: قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب:

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين وكانت مهمته عسيرة وصعبة، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيداً للمعركة المقبلة الفاصلة، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في رأب الصدع، وتأليف القلوب وتعبئتها لمداغة المرابطين، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أياماً ثم ارتحل عنها⁽¹⁾، غير أن ابن القطان⁽²⁾ وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة، وفيها خرج عبد المؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول سنة 526هـ في جيش ضخيم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولاً نحو حصن تازا جوروت وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط وقيل يحيى بن مريم الزرجاني⁽³⁾، فتمكن عبد المؤمن من

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس د. مهدي عبد المنعم ص (111).

(2) نفس المصدر ص (111).

(3) نفس المصدر ص (111).

اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس. رحل عبد المؤمن عن تازجورت بعد أن سبى ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينملل، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد، بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليها، كما استولى في نفس العام - 526هـ على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار إلى بلدة جشجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أجلاحال، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامرأته في يوم العيد، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه، وفي هذا العام أيضاً افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين، كما كانت تقوم على حراسته حامية، من هزرجة قوامها مائتي وخمسةائة راجل، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعبته لجأوا إلى الحيلة فدخلوا بعض أفراد من حامية الحصن وتواطؤوا معهم على فتحه، فاقتحموه ليلاً، وقتلوا أبو بكر بن وأصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين⁽¹⁾ عاد عبد المؤمن إلى تينملل، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض منافسي عبد المؤمن وأن

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (113، 114).

الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال تلح في نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن وأعني بهم أصحاب ابن تومرت العشرة وتتلخص هذه الحادثة في إقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن علي أثناء غيابه عن تينملل غازياً، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن ابن ملوية، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطة لمهاجمة تينملل، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامدغوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعمة إلى تينملل، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينملل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت، ونعوا إلى ابن ملوية تلك الخيانة وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكي أحد أهل خمسين ومعه غلامه، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه، وهما جثته إلى تينملل حيث صلبت، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها وقسم الغنائم عليها⁽¹⁾.

ويبدو أن عبد الله بن ملوية لم يكن متطلعاً للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة وخصوصاً وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من كذب وباطل وظلم وجور مارسه ابن تومرت بدون مسوغ شرعي ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين علي بن يوسف.

وفي عام 526هـ حدث أمراً عظيماً يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول عهد المرابطين، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي⁽²⁾ ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين، وكان الفلاكي من أهل اشبيلية وكان في بداية أمره شقيماً وقاطع طريق، ثم تاب فعفا عنه والي اشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة، ثم انتقل إلى خدمة أمير

(1) انظر: تاريخ المغرب في الأندلس ص (114).

(2) انظر: دولة المرابطين ص (127).

المسلمين علي بن يوسف، الذي قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه إلى السوس للدفاع الموحدين، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدية من قبل، وظل في خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد إلى طاعة المرابطين وفي عام 528هـ قتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام 529هـ سار عبد المؤمن لغزو بني بيجز وظل عبد المؤمن يحاصرهم نحو أربعين يوماً، فلما يش من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينملل واستمر الصراع من عام 531هـ إلى 532هـ وفي هذا العام 532هـ تحرك عبد المؤمن من تينملل إلى جبل غياثة، فعسكر بجرائده على مقربة من المقرمة عند وادي أبي حلوا، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت، فعسكرت بالقرب من محلة سير، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيى بن فانو غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين، وراسل عبد المؤمن بن علي وطلب منه عسكراً لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبد الله بن يحيى بن أبي بكر، فأمدته بقوة موحدية، أغار بها على محلات عسكر المغرب، وألحق بهم خسائر فادحة. وفي نفس الوقت توفي القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للمرابطين، فأسند الأمير سير القيادة إلى القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفى، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجده. وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير بن علي بأن عبد المؤمن يريد بلاد غماره، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة تحركات عبد المؤمن. وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذويه من زناتة واتفق معهم على أن يخذلوا

المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناتة، وهاجمتها، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة⁽¹⁾.

وفي عام 533هـ تحرك عبد المؤمن بن علي من تينملل، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاحة، فزحف إليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرير قائد فرقة الجند للمرابطين، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة، وكان علي بن يوسف قد قتل عدداً من أعيان قبيلة منانة، وكان ذلك سبباً في دخولها في طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة أيام، وهو يشن عليهم الغارات، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدزران ثم إلى بني سوار من منانة الجبل، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبد المؤمن إلى أجر فرجان، فتبعه تاشفين بن علي في قواته وسد عليه الطريق، فنشبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين، هزم فيها تاشفين، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد وفي هذه اللحظات وصلت قوة مرابطة من مراكش مدداً لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين، فطمعوا في انتزاع الغنائم من الموحدين، فلما علم عبد المؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمائن في مضائق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة جزولة وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ما سمعوا قرع الطبول. نجحت خطة عبد المؤمن بن علي نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسبان، فقد هاجمت جزولة ساقه الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فلما توسطوا مواضع الكمائن، دقت الطبول فجأة، فاندفعت الكمائن صوب

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (117).

جزولة فأبادوهم عن آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم وما إن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة.

وفي عام 534هـ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لتونة وزناتة لقتال الموحدين وانضمت اليه فرقة بقيادة الروبرتير، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزعور ما يقرب من شهرين، وشددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراکش حاملاً معه الروبرتير جريحاً.

وفي عام 535هـ (1140-1141م)، خرج الجيش المرابطي من مراکش بقيادة الروبرتير، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي في مكان يسمى امسيمصي يقع في أرض كدميوه شمال تينملل وقيل إن اللقاء حدث بجبل خدميره، ولا يذكر البيدق، نشوب معركة بين الجانبين وإنما يؤكد ان كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحاً إلى مراکش. ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لتونة، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى اكظورور، فهزم المرابطون، وارتد الروبرتير في فلوله جريحاً إلى مراکش، وعاد عبد المؤمن إلى تينملل⁽¹⁾.

واصل عبد المؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين، فخرج في قواته نفس العام - 535هـ - وحاصر حصن تينلين، وكان يدافع عنه واليه المرابطي يركين ابن وبدرن، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص 120.

ايرمناد، وتاسلولت وتيونوين وايجلي وغيرهم وفي نفس الوقت هاجم الروبرير محلة تيغيغايين الموحدية، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش. أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياها فيها « تما كونت » ابنة يتان بن عمر أحد وزراء علي بن يوسف، التي رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها، وذكرته بشفاعة أبيها يتان بن عمر في ابن تومرت، عندما كان ماراً بمراكش، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكيل به، فلم يتردد عبد المؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيغايين وأرسلهن آمنات مكرمات إلى تينملل رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدون على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين مستهدفاً القضاء عليها وإسقاطها، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية 535هـ ويورد البيذق وكان شاهداً عياناً لأحداث هذه الفترة وصفاً دقيقاً لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينملل في حشود ضخمة متجهاً نحو الشمال الشرقي، فنزل بموضع يسمى وإنزال ثم زحف إلى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ثم غادرها إلى تاساوات فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في أثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مروراً ببلدة يمللو القريبة منها، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو « واويزغت » دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فيها الدائرة على المرابطين. ثم تقدم الموحدون إلى « داي » فولى حاكمها المرابطي علي بن ساقطر الأدبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين وواصل الموحدون زحفهم صوب « تازاكارث » ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعثها قلعة واوما، ثم آزررو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها، فدخلها الموحدون، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته، وجه منها عدداً من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدون إلى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبد

المؤمن. وهكذا دخل أهل فازاز جميعاً في طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة في أزرو حيث تزوج من إحدى نساها. واصل عبد المؤمن زحفه، فخرج من أزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة، ففتك بها وأباد معظمها، واستولى على كميات كبيرة من المؤن والعتاد، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي أزرو، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبي أزرو، وعندئذ اتجه نحو سلجاسة، فبادر واليها أبو بكر بن صارة بالدخول في طاعة الموحدين. وفي أوائل عام 536هـ قامت سرية موحدية على رأسها عبد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمها، وتابع ابن زكو زحفه إلى الشمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي. وفي هذا الأثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به، ثم بعث الروبرتير في قوة إلى الفلاج لاستنقاذها، فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم يحيى، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس ثم تقدم الموحدون نحو أرض غيانة الواقعة شرقي فاس، وضربوا محلثهم على سفح جبل عفرا، بينما عسكر المرابطون في موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا. ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء وكان شتاءً قاسياً تعرضت فيه المنطقة خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة، إلا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى، حيث تساقطت الخيام، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلّة الأوقات والوقود في كل من المعسكرين وبلغ سعر الشعير في معسكر الموحدين وفقاً لقول البيذق ثلاثة دنانير للسطل، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل. ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الوجبة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي وتقع إلى الشمال الشرقي من فاس. وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في أثر الموحدين، فاضطر الموحدون إلى

ترك أرض لكاي إلى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا في طاعتهم. وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها، وأصبح العسكران كفرسي رهان، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في موضع يقال له «تازغدرا» أسفرت عن قتل عدد من القوتين، ارتد الروبرتير على أثرها إلى بني تاودا بينما سار الموحدون إلى «تاغزوت» ومنها إلى بني مزكلدة، ثم إلى ايلانة ثم إلى ايجن. وفي ايجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن علي أزناج أحد جماعة العشرة، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبر والتمسك والاختصاص لمبادئ ابن تومرت، وطاعة عبد المؤمن، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى «بجدار نمضى»، ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف، مروراً بتا مقريت ووادي لو أرض بني سعيد. ومن وراءهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان، في الوقت الذي وصلت قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطللة على البحر المتوسط، ومكنت نفوذها في تلك النواحي، وواصلت من هنالك تقدمها إلى ثغر المزمة ومنها إلى جبل تسمان، حيث وجه عبد المؤمن قائده عبد الرحمن بن زكو في قوة من الموحدين لغزو مليلة، فاقتحمه وظفر بغنائم وفيرة ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كوميه، قبيلة عبد المؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقاً إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن وفي هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زكو، وجهتها ثغر وهران، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه، والثانية بقيادة الشيخ أبي إبراهيم إسماعيل، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان، والثالثة بقيادة يوسف بن واندين وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهري، ومحمد بن يحيى بن فانو، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهري وابن فانو، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم، على قوى المرابطين وان كانت كلفتهم كثيراً

طوال حياة أمير المسلمين علي بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيئته في نفوس المرابطين، ثم جاءت وفاته سنة 537هـ بداية لنهاية دولة المرابطين⁽¹⁾، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة والده لقتال الموحدين، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشئون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هبة المرابطين في الأندلس ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام (538هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة علي بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين فانضمت مسوفة إلى الموحدين. وفي عام 539هـ / 1144م تمكن عبد المؤمن بن علي من قتل القائد المرابطي البربرتيبر ودخل تلمسان وفي 27 رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران، وفي 14 ذي القعدة 540هـ / دخل الموحدون فاس، وفي 18 شوال تمكنوا من دخول مراكش⁽²⁾.

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات فقصوا على اقتصاديات دولة المرابطين. كما شجع هذا الوضع الأسباب النصراري على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم وقد صور صاحب الحلل الموشية⁽³⁾ ذلك بقوله:

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص (121، 122، 123، 124).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/ 783 - 786).

(3) مؤلفه مجهول.

(وتأججت نار الفتنة بالمغرب، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن، وعم الجذب وقلت المجايي وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدو ونقل إليها كثير من أسلحتها وعددها فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس واختل عليهم وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال)⁽¹⁾.

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله، فكان لابد من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط.

ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس :

بعد أن احتل عبد المؤمن بن علي مدينة فاس وحاصر مراكش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض واليهم السابق إلى يحيى بن علي بن غانية المسوفي والى الأندلس، فلقية بالجزيرة الخضراء وطلب منه والياً على سبتة، فأرسل معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي، فقام بأمر سبتة وشكل حلقاً مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودكالة، فاضطر عبد المؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته، ثم عاد إلى مراكش وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه، فعفا عبد المؤمن عنه، وراجع أهل سبتة طاعتهم، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه⁽²⁾.

(1) الحلل الموشية ص (12).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/788).

ويعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى واستتاب الأمر لعبد المؤمن وجه نظره إلى الأندلس وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلنت ثوراتها وانفصالتها عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين بن علي في عام 539هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة 540هـ كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبد المؤمن بمراكش عام 541هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة الموحدين فسير عبد المؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان 541هـ ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشرش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلبة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت اشبيلية في سنة 541هـ تحت لوأئهم بعد ان اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث ان نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقى أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة.

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف باشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشتمرية وقادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة 543هـ ولم تبدأ سنة 545هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبد المؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم

على قادس واشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام 546هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع.

وفي سنة 549هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن بدر اللمتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية براً وبحراً وتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبه بعد ان احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. وحاول الفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من 12 ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من 6 آلاف مقاتل، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، والي اشبيلية فازدادت قوة الموحدين بقدمه واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى «العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل». وولى عسكر الفونسو الأدبار تاركين حامية قصبه المرية لمصيها التعس، ومات الفونسو في طريقه إلى بياسة سنة 552هـ وخلا الجو للموحدين، فشدوا الحصار على القصبه، واستولوا عليها في سنة 552هـ وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها⁽¹⁾.

وفي سنة 555هـ أمر عبد المؤمن ولده أبو سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس، وعلى أثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى

(1) انظر: المغرب الكبير (2/ 791).

الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالها على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن أطرافكمش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش⁽¹⁾.

رابعاً: فتح المغربيين الأدنى والأوسط:

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام 556هـ وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبد المؤمن من اختلاف الأمراء وتطاول العرب من بني سليم وهلال على إفريقية بالعبث والفساد، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة 546هـ من مراكش قاصداً مملكة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهديّة في أيدي النورمان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علم بقدم عبد المؤمن بن علي خرج للقاءه فتلقاه بحفاوة بالغة وصحبه في غزو إفريقية ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبد المؤمن، فانهزم هزيمة نكراء، ودخل الموحدون بجاية ولما رأى يحيى ألا طاقه له بمحاربة عبد المؤمن، هرب في البحر إلى صقلية لقصده الانتقال منها إلى بغداد، وحمل معه ما استطاع من الذخائر والجواهر والذهب والأموال، ثم عدل عن ذلك ونزل في بونة على أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن. أما عبد المؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم، وحرزهم الأمان، واقتحمها عنوة، فخرّبها، وأضرم النار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبد الله، ورتب من الموحدين من يقوم

(1) انظر: المغرب الكبير (2/792).

بالدفاع عنها وكر عائداً إلى مراكش. وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه، فأمنه وأصبحه معه إلى مراكش في سنة 547هـ وأسكنه بها، ثم انتقل يحيى إلى سيلا سنة 558هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة. أما الحسن بن علي فقد صحب عبد المؤمن في غزواته الأولى إلى إفريقية، كما صحبه في سنة 554 في غزوته الثانية، فحاصر معه المهديّة، ثم دخلها وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي بتامسنا في سنة 563هـ. ثار عرب الأثيخ ورياح وزغبة في سطيف على عبد الله بن عبد المؤمن بن علي من أجل إعادة دولة بني حماد، فأرسل عبد المؤمن بن علي إلى ابنه مدداً، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهم في سطيف، فانهزم العرب، وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد من كبارهم طائعين، فأكرمهم، ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته، فاتخذ منهم جنداً وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم انه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما أراد الجواز إلى الأندلس في سنة 555هـ أدخلهم بها، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في إقليم إشبيلية، مما يلي شريش وأعمالها، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من 5 آلاف فارس سوى الرجال⁽¹⁾. وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة 552هـ فحاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغووير مياهاها، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين⁽²⁾.

(1) المراكشي ص (226).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/ 795).

وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك، فخلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز بن خراسان، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك. فخرج أبوه من مراکش في جيوش لا تحصى في 10 شوال سنة 553هـ بعد أن استخلف على مراکش أبا حفص بن يحيى، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة، ثم واصل زحفه إلى المهديّة، وضرب عليها الحصار. وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر، ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها في سنة 554هـ. وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهديّة قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بني كامل من رياح، المتغلبين عليها، كما استولى على قفصة من بني الورد، وعلى طبرقة من مدالع بني علّال، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي، والأريس من بني فثانة العرب ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضاً، وافتتح بلاد الجريد كلها¹. وعاد بعد ذلك إلى مراکش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة².

خامساً: سياسته مع النصارى واليهود وتخرجه للسياسة لضبط نظام الدولة:

أ- عندما استولى عبد المؤمن على مراکش، قتل المقاتلة، وكفّ عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى وقال: إن المهدي أمرني أن لا أُقرّ الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا تُخبركم بين ثلاث، إما أن تُسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب، وخرّب كنائسهم، وعملها مساجد، وألغى الجزية،

(1) المراكشي، ص (230).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/799).

فعل ذلك في جميع مدائنه، وانفق بيوت الأموال، وصلى فيها اقتداءً بعليٍّ وليّري الناس أنه لا يكتز المال، وأقام كثيراً من معالم الإسلام مع سياسة كاملة، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتلوه، وأزال المنكر، وكان يؤمُّ بالناس، ويتلو في اليوم سبعا، ويلبس الصوف الفاخر، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسم الفئ بالشرع فأجبهه، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده، ولم يدع مشركاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً، فجميع رعيته مسلمون⁽¹⁾.

ورأى عبد المؤمن أنه من الحزم والفتنة أن يضع للدولة نظاماً موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسار في كل ذلك مع نهج الدين الخفيف، وبنى عدداً من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً، مع التمرين على فنون الحرب، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدرّياتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدّها ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه⁽²⁾.

(1) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (20/ 370، 371).

(2) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين يوسف اشباح (2/ 50).

لقد استطاع عبد المؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشئ نظاماً جديداً للدولة، إذ لم يبقى من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوآته. وكان أشد ما يعنى به عبد المؤمن - وهو من أعظم قادة عصره - تنظيم شؤون الحرب والجهاد التي بث فيها بجهوده ومتابعته، نهضة إحياء شاملة وإليك وصفاً لنظام سير الموحدين، وتقسيماً للجيش، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين⁽¹⁾.

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة المسير ثلاثة قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً، مدهون بلون الموحدين الأخضر، ومحلى بالذهب، وقد صُنع من خشب رنّان، فكان يُسمع على مسيرة نصف يوم إذا صُرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ربح فيه، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص، وهو يحمل مطوياً أثناء السير، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق، وعليه هلال مذهب، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة، وتُخصّص لغذاء الجند، وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف - فضلاً عن الفرسان - من سبعين ألفاً من المشاة، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء، أو ضيق في المكان، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة، وترتب على هذا التمهل في مسير الجيش أن اقتفى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط. وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة، وأدوا معه

(1) انظر: الأراك د. شوقي أبو خليل ص (29).

الصلاة، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه، وإلى قيادة الجند التابعين له، وكان يتقدمه مائة شيخ وقائد، يمتطون جياداً مطهّمة ويتقلدون أسلحة فاخرة، ويرتدون ثياباً فخمة، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة، تبرُّكاً وتيمناً، وقد وضع في - صندوق - بديع الصنع، محلىً بصفائح الذهب: مرصع بأروع اللآلئ والأحجار الكريمة، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين، وبني عباد ملوك اشبيلية، وبني هود ملوك سرقسطة، والمرابطين، قد اجتمعت فيها جميعاً وتكدّست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن، وإلى جانبه ولده وكتاب سره السيد أبو حفص وإلى تلمسان، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناءؤه الآخرون⁽¹⁾ الذين يرافقون الجيش، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية، والنافخون في الأبواق والقرون⁽²⁾ وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية، ثم الولاة والقضاء والوزراء والكتاب، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص، ثم توزع الأوقات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة، على الجند بأنصبة متساوية، فلا يُقترَ على أحد منهم.

يستنتج من هذه النظم الصارمة، ومن المثابرة على التمارين الحربية، ومن دراسة حياة الموحدين:

1- ان عبد المؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.

2- كان يتولى القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.

(1) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولداً.

(2) القرن هنا: آلة موسيقية تعتمد على النفخ، تشبه تماماً القرن المعروف على رأس البقر أو غيره.

3- وكان يتبع نظاماً جديداً في منتهى البساطة، ولكنه جم الفوائد.

4- وأن قيمة الجيش ليست في عدده، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه، وكان عبد المؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب، حسنة التسليح، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن، مع وجود جيش ضخّم من الفرسان لا يستغني عنه في المعارك.

ومن أعمال عبد المؤمن: مسح جميع أراضي مملكته، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثورتها وغلاتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن، والمناطق الصحراوية والفتية بالخييل تقدم الفرسان ودواب الحمل والجمال، وعلى الولايات الأخرى في المدن الداخلية مثلاً - تقديم الجند المشاة والسلاح، كل بنسبة سكانها.

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسيّ والنسّاب والخوذات والدروع والسهام.. وآلات الرمي والمنجنقات التي تستخدم في الحصار¹ وعزم عبد المؤمن على تغيير نظام الطبقات ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر الغير موالية له وتخلص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له غير مؤكد. ومشأغبتها عليه محتمل وقوعه وخافه الموحدون خوفاً عظيماً وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه الشخصية وطموحه الذاتي، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصاً كبيراً. فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة 524هـ التي هزم فيها الموحدون من قبل القوات المرابطية. وهؤلاء

(1) انظر: معركة الأراك ص (32).

هم: أبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريشي وسليمان بن مخلوف الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي وأبو يحيى ابن بيكيت وأبو عبد الله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي أصناك، فقد توفي سنة 536هـ وقتل عبد الله يعلي بن ملوية سنة 527هـ بعد أن خرج على الخليفة عبد المؤمن. إذ أنه حقد على الموحدين بيعتهم له أما أبو الحسن بن واكك، فقد قتله طلحة غلام أبي إسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة 541هـ.

وإذن فقد توفي في طبقة الجماعة، المكونة من عشرة أشخاص، ثمانية أفراد، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وعبد المؤمن بن علي وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين، وغيرها من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتاحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين، فرصة طيبة لعبد المؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات⁽¹⁾ وبعد أن تخلص من أكثر من (32080) شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضروا والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم، خوفاً ورهبة مما يجنيه لهم الخليفة. لقد رسم عبد المؤمن خطته في أناة وروية، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال، حتى إذا ما استوفى ربط الحلقات وإحكامها، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله. وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ولا يكون للموحدين أي شيء. هكذا أصبح عبد المؤمن خليفة الموحدين اسماً وفعلاً.

ولما أن أصبحت الحال تلك، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي وأعلن عليهم النظام الجديد وحدد فيه مكان كل منهم وتغيرت الطبقات من أربعة عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات: (فالطبقة الأولى: هم السابقون

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (58).

الأولون الذين بايعوا بن تومرت، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباءوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الخطوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يوازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة: من آمن بهذا الأمر ودخل في هذا الحزب وانصوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثانية من فتح وهران إلى هلم جرا. من النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين، يتبين أن عبد المؤمن ألغى طبقة الجماعة إلغاء نهائياً، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شؤون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبد المؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبد المؤمن ألغى الطبقات الأربعة عشر، وجمعها كلها في طبقة واحدة، وهي الطبقة الأولى في نظامه. وهو قد ذهب إلى مدى أبعد، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأى بن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين، يوم الثاني عشر من جمادي الثانية من سنة خمسائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة 1130م.

ومعنى هذا أن عبد المؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى في نظام بن تومرت ثم انه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأولى، وجعل مكانة الجميع على قدم المساواة. وهذه المساواة بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الإحدى عشر الأخيرة في النظام الملغي، كسباً معنوياً كبيراً وفائدة مادية جلييلة. وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لإتاحته لهم هذه الفرصة الذهبية. كما وأن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية، فرصة الانتماء للنظام الموحدى واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية، فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين، منذ موقعة

البحيرة سنة 524هـ وحتى فتح وهران سنة 538هـ وهذا يعني أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجاعات والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة 524هـ وحتى سنة 538هـ. سواء كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختياراً أو إجباراً وقسراً بحد السيف. وهكذا استطاع عبد المؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الموحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين، وإدراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدى إلى انتشار الرضى بينهم واطمئنانهم إلى مستقبلهم الذي يبشر به انضواؤهم في النظام الطبقي للموحدين. وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي، قد أتاحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضى والتأييد للخليفة عبد المؤمن بن علي، الذي أقدم بشجاعة فائقة على تغيير النظام القديم، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحيدي، بل وفي الطبقة الثانية منه، وبهذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه.

والطبقة الثالثة، تضم من دخل حركة الموحدين منذ فتح وهران سنة 538هـ وإلى أي زمن تلا ذلك، فاتحاً الباب لكل من يطيع الموحدين لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة.

ثم أن عبد المؤمن لما أن افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدين، بعد أن قضى على إمارة بني حماد فيه، قام بمحاربة قبائل بني هلال، الذي وقفوا في وجهه. وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة. وبدلاً من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفاً من كل قبيلة منهم وينزلهم بالمغرب الأقصى كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء. وعن هذه الأحداث يذكر البيهقي قائلاً: «وأما ما كان من أمر غنائم العرب واسبغها، فترك منها أمير المؤمنين في فاس

ومكناسة وفي سلا وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراکش وعياليهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان، وأبو قطران، وأبو عرفة، والقائد ابن معرف. فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عياليهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. فقالوا للخليفة تأمرنا بالرجوع إليك. فقال لهم الخليفة مجاباً لهم نحن نصل إليكم ورددناهم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك في عام 547هـ⁽¹⁾.

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى. وهو في الواقع قام بهذا العمل، ليعيد شر هذه القبائل عن افريقية والمغرب الأوسط ويجعلها في متناول يده، كما أنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولائها. كما وأن جلبه لتلك الآلاف منهم وإنزالهم بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصية له ضد ثورة المصامدة المحتملة⁽²⁾.

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم وحرصهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال:

| | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| أقيموا إلى العلياء هوج الرّواحل | وقودوا إلى الهيجاء جُرد الصّواهل |
| وقوموا لنصر الدين قومة نائير | وشدوا على الأعداء شدة صائل |
| فما العُز إلا ظهرُ اجرد سابع | وأبيض مآثور وليس سائل |
| بني العمّ من عليا هلال بن عامر | وما جمعت من باسل وابن باسل |
| تعالوا فقد سُدَّتْ إلى الغزو نية | عواقبها منصوره بالأوائل |
| هي الغروة الغراء والموعد الذي | تنجّز من بعد المدى المتطاول |
| بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنى | بها نُصِفُ التّحقيق من كل باطل |

(1) البيدق أخبار المهدي ص (116).

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (57، 58، 59، 60).

فلا تتوانوا فالبدائرُ عنيمةٌ وللمدلج الساري صفاء المناهل^١

وكانت الشعراء تقصد عبد المؤمن لمدحه، ولما قال فيه التّفاصي قصيدته:

ما هزَّ عطفه بين البيض والأسلِ مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر له بألف دينار^٢، ولما سار عبد المؤمن يوشه ونزل جبل طارق، وسماه جبل الفتح، فأقام أشهراً، وبنى هناك قصوراً مدينة، ووفد إليه كبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشداً:

ما للعدى جنةٌ أوقى من الهرب أين المعزٌ وخيلٌ الله في الطلب
وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سهامُ الله بالشُّهْب
حدّث عن الروم في أقطار أندلسٍ والبحر قد ملأ البرّين بالعربِ

فأعجب بها عبد المؤمن وقال: بمثل هذا يمدح الخلفاء^٣، وبعد أن أطمأن عبد المؤمن سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في الدولة، سمن تحطم نفوذ الشخصيات البارزة في مجموعة الموحدين، وتأكد له ولاء أغلب طبقات في النظام الجديد، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال مليم التي أنزلها في أحواز مراكش، أقدم على الخطوة الخطيرة التي ما فتئ يستعد لها مهد الطريق أمامها ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وتوليه أحدائه ولياً لعهد^٤.

وفي عام 549هـ أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في

(انظر: سير أعلام النبلاء (20 / 373).

(انظر: سير أعلام النبلاء (20 / 370).

(انظر: سير أعلام النبلاء (20 / 372).

(انظر: سقوط الموحدين ص (60).

طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لابنه محمد ولياً لعهدده وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك، فجاء فيها: «ولكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر آخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها... وكانت العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها، حاضرة وبادية من أهل إقليمها وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ولم تزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفاة، للأخذ بأطناج السعادة المنيفة بهم على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقاءهم بما أضمره، وأبدوا سرهم المكنون وأظهره. واعلموا أن محمداً - وفقه الله - هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليته مرادهم... فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجتمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم وتذاكر معهم في ذلك الأمر المسئول ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين، بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل فكان ذلك على ما أفصدهم وذكرنا في الأمر على ما أتوخى فيه واعتمد. وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما اعتقد... وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى - أعزه الله بتقواه - هذا أمر نحن بتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتأميره علينا وتحكيمه. ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه. فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعياء.. وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمر في ضمائر أكثر معقود وفي نفوس جمهورنا

موجود وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد... وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور يميناه، قصد اعتقادها على أكرم وجه وأسناه، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم وسرى النعيم بها في أبشارهم ومناهم، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدية وسائر إخوانهم المؤمنين قبلاً بعد قبيل⁽¹⁾.

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط أولها أن عبد المؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير في تولية أحد أبنائه لخلافته في الحكم.

وثانيها أن هذه الفكرة إنما أثارها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية. وهي التي لم تكتف بإثارة الموضوع، بل وألحت عليه. ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة في دولة الموحدية، ليست من الأمور البسيطة التي يمكن لمثل هذه القبائل أن تبدي رأياً عنها وتتدخل فيها. فهي مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية في جوهرها فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التي أخضعت بحد السيف. وتدخل هذه القبائل في مثل هذا الموضوع، يثير الشك بأن الخليفة عبد المؤمن هو الذي أوحى لها بأن تثير وتلح عليه.

والنقطة الثانية، هي أن الموحدية وأشياخهم لما أن جمعهم الخليفة في حضرته، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية في أن يتولى ابنه محمد الحكم بعده، بينوا أنهم أولى من غيرهم في اقتراح مثل هذا الأمر وأنهم أولى بعقد النية والعزم عليه. والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبد المؤمن السيد المطاع بلا منازع في دولة المرابطين ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد وتقديم البيعة لولي عهده، النقطة الرابعة: يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيى وجد نفسه أمام أمر الواقع ولذلك بادر بإظهار الرضى عن هذه البيعة وكان أول المبايعين لابن عبد المؤمن وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبد المؤمن في الحكم.

(1) انظر: سقوط الموحدية ص (62).

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل الحكم وراثياً في عقبه وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثياً.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ومن الطبيعي أن يكون أهل بن تومرت أول المعارضين لعبد المؤمن ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحد بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحد في المعركة. وطمع بنو هلال أثر هذا الانتصار في الموحدين الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة. ولكن عبد المؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحد وارتفاع روحه المعنوية، وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف في وجه العواصف الهوج، فقوت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبد المؤمن بفعله ذاك والقي القبض على يصلتين وقتل في سبته عام 546هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام 549هـ حاول أخو بن تومرت، عيسى وعبد العزيز في مدينة مراکش القيام بثورة على عبد المؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم إلا أن المخلصين من أنصار عبد المؤمن وأهل مراکش افشلوا تلك المحاولة الفاشلة وكان عبد المؤمن بعيداً عن مراکش في سلا، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم الثلثائة شخص وقتلوا جميعاً وأعدم أخوا ابن تومرت وفي عام 555هـ حاول بيت بن تومرت اغتيال عبد المؤمن إلا أن تلك المؤامرات أهبطت في مهدها وشعر عبد المؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته وأمرهم أن يأتوه ركباناً ويركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة 557هـ إلى مراکش في تعداد تجاوز الأربعين ألفاً وفرح بهم عبد المؤمن فرحاً عظيماً وأنزهم في مراکش وأعطاهم الدور ووزع عليهم

البناتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه ويحيط به في تسياره وبذلك اطمئن على نفسه على حكم أبنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبد المؤمن من إبعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بني هلال، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات جعل من الموحدين خدماً لمصلحة فرد وأطاعه المادية بعد ان كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المثوية والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبد المؤمن في جعل الحكم وراثياً ساهم في إيجاد تنافس شديد وتنازع ممت بين أبناء عبد المؤمن فيما بعد، بل سفكت دماء، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الأخوة في سبيل تولي الحكم، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة⁽¹⁾. لم يكتفي عبد المؤمن ببيعة الموحدين لابنه بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحدين، ظهور التكتلات التي ساهمت في إضعاف الدولة، وكانت سبباً في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبد المؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية، وعبد السلام الكومي⁽²⁾.

شيء من سيرة عبد المؤمن ووفاته:

1- لما نزل عبد المؤمن سلا وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر في البحر عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة، فخر ساجداً، ثم رفع وقد بلّ الدمع لحيته، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لاشيء لهم إلا رغيف

(1) انظر: سقوط الموحدين ص (62، 63، 64، 65، 66، 67، 68).

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (69).

واحد، فراموا عبور هذا النهر، فبدلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يُعَدَّ بهم، فقال: لا آخذه إلا عن اثنين، فقال احدهما وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح، ففعل، فكان الشابُ كلما أعيأ، دنا من القارب، ووضع يده عليه يستريح، فيضربه بالمجداف، فما عدَّى إلا بعد جُهد فما شك السامعون أنه هو السابح، والآخران بن تومرت، وعبد الواحد الشرقي⁽¹⁾.

2- ذكر ابن العباد في شذرات الذهب عبد المؤمن بن علي فقال: (كان ملكاً عادلاً سياسياً عظيم الهيبة عالي الهممة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن العظيم، ويحْتَنِب لبس الحرير ويصوم الاثنين والخميس ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنها خلق له وكان سفاكاً لدماء من خالفه سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهما فقالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما:

يا ذا الذي قهر الأنام بسيفه ماذا يضرّك أن تكون
الفظ بها فيما لفظت فإنه إلهسا

لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآها وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا فكان عبد المؤمن يتزيا بزّي العامة ليقف على الحقائق فوَقَّعت عيناه على شيخ عليه سيبا الخير فتفرس فيه أنه قائل البيتين فقال له أصدقني أنت قائل البيتين قال أنا هو قال لم فعلت ذلك قال قصدت إصلاح دينك فدفعت إليه ألف دينار فلم يقبلها ومن شعره وقد كثر الثوار عليه:

لا تحفلن بما قالوا وما فعلوا إن كنت تسموا إلى العليا من الرتب
وجرد السيف فيما أنت طالبه فما ترد صدور الخيل بالكتب⁽¹⁾

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (20 / 373).

بالكتب⁽¹⁾

3- فبعد أن أتم عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحيدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم له تعيين ابنه ولياً لعهد، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورؤوس الفتنة، وخصّد شوكة أفراد بيت بن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقوية ظهره بعصية قبيلته، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الاسبانية وكل من تمرد على دولة الموحيدين ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة⁽²⁾.

يقول ابن صاحب الصلاة: (تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحيدي الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: «وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكديساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وافريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغريته الأذهان ولا تقدم بمثله

(1) انظر: شذرات الذهب (40 / 183).

(2) انظر: سقوط دولة الموحيدين ص (77).

زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين...)»⁽¹⁾.

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة هجرية (558هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوالي مائة ألف راجل ومائة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد اسبانيا:

1- الجيش الأول: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

2- الجيش الثاني: إلى فرناند ودي ليون.

3- الجيش الثالث: إلى الفونسو الثامن ملك قشتالة.

4- الجيش الرابع: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمّد هذا العمل الكبير، مرض عبد المؤمن بن علي المفاجئ، وانتظار الموحدين شفائه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة 558هـ⁽²⁾ قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة:

«فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وباعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفاكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله

(1) ابن صاحب الصلاة ص (213، 215).

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (78).

يحكم فيه بما يشاء...)»⁽¹⁾.

إن المتتبع لتاريخ عبد المؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة بن تومرت تبدد حيث انشغل بالأمور السياسية والعسكرية واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون - على حسب اطلاعي - أنه قام بشيء من هذا، ويدل على ذلك أن عبد المؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر بن تومرت ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنباً إلى جنب مع الظل السياسي للدولة في عهد عبد المؤمن وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه بن تومرت وصادر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها وكان ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت. إن تاريخ عبد المؤمن يشير إلى أنه لم يكن جاداً في الالتزام الحرفي لدعوة بن تومرت، ولعل ما تحمله دعوة بن تومرت من شطط وغلو في بعض أفكارها من الأسباب الرئيسية التي جعلته يحجم عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد له مما يعرض دولته للخطر⁽²⁾.

(1) البداية والنهاية (12/ 264).

(2) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد السادس ص (572 ، 573).

المبحث الثاني

أبو يعقوب يوسف

هو السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي، صاحب المغرب.

قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه، وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف، وبويع أبو يعقوب، وكان شاباً مليحاً، ابيض بَحْمرة، مستدير الوجه، أفوه، أعين، تام القامة حلو الكلام فصيحاً، حلو المفاكهة، عارفاً باللغة والأخبار والفقهاء، متفتناً، عالي الهممة، سخياً، جواداً، مهيباً، شجاعاً خليقاً للملك⁽¹⁾.

أولاً علمه وبيعته:

أ- علمه:

قال عبد الواحد بن علي التميمي : صح هيندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنه البخاري. قال: وكان سيدد الملوكية، بعيد الهممة، جواداً، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة، وجمع كتب الفلاسفة، وتطلبها من الأقطار، وكان يصحبه أبا بكر محمد بن طفيل الفيلسوف، فكان لا يصبر عنه، وسمعت أبا بكر بن يحيى الفقيه، سمعت الحكم بن أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يُطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء؟ أقديمة أم حادثة، فخفت، وتعللت، وأنكرت الفلسفة، ففهم، فالتفت إلى ابن طفيل، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حُجج أهل الإسلام فرأيت منه

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (21/99).

غزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم، ولم يزال يسطنني حتى تكلمت، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب⁽¹⁾.

وقال عنه العلامة شوقي أبو خليل: (أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن الناس ألفاظاً للقرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد المهمة، سخياً جواداً، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إثارة للعلم شديد وتعطش إليه مفرط، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم، هذا مع ذكر جميل من الفقه، وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة والطب وجمع مكتبة، كان ما فيه قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (350-366هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمئة ألف مجلد.

ب- بيعته:

يرى الأستاذ الدكتور مراجع عقيله الغنائي أن بيعة يوسف بن عبد المؤمن تمت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبد المؤمن والحزب الموالي لهما وأن أبا حفص عمر بن عبد المؤمن حرص على أن يسيطر منذ توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة وأن ينظم كتلة من الموحدين ترتبط مصالحهما به، ولذلك أصبح عليه من السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق، محمد، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه. ولربما كان عمل الأمير عمر، بجعل الإمارة لأخيه يوسف بدلاً منه وهو الشخصية ذات القوة والنفوذ أنها كان يبعد نفسه عن شبهة التآمر والذي يرجح الفرض القائل

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (21/100).

بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه يوسف، أن بعضاً من أبناء عبد المؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف فقد رفض السيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة، والسيد أبو محمد عبد الله والي بجاية، أن يابعا لأخيها بالأمارة. ولذلك لم يستطع يوسف ابن عبد المؤمن أن يسمى باسم أمير المؤمنين وإنما اكتفى باسم الأمير. كما وان رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحدين والجيوش الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا⁽¹⁾، لذلك ألغي مشروع العبور إلى الأندلس، وأعطيت الجنود الأمر بالرجوع إلى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحدين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحدين⁽²⁾، فأبن صاحب الصلاة يقول: (ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم مراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينتهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسئولهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات. وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح، بقراءة الحزب واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد والذب ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخر العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم.....)⁽³⁾.

وسعى شيوخ الموحدين في سبيل الإصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم وصفا الجو بين أبناء عبد المؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبد المؤمن في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاثة وستين وخمسمائة (563هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين، وهو الاسم الخلفي عند الموحدين⁽⁴⁾.

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص 85.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص 231، 233.

(4) انظر: سقوط الموحدين ص 88.

ثانياً: سياسة يوسف عبد المؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور:

- 1- المحور الأول: استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.
 - 2- المحور الثاني: العمل على الحد من أطماع الممالك والأمارات الأسيانية.
 - 3- المحور الثالث: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.
- إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثنختها وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها.
- ينتسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعد بن محمد والياً للمرابطين على إفراغه¹.

تولى محمد بن سعد بن مردنيش: حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (542هـ) الموافق 21 أغسطس سنة (1147م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسه بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادى الأولى سنة (542هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع عماليك النصارى وإمارتها ضد الموحدين وكان غرض الأسباب النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع ان تحارب المسلمين بنفس

(1) انظر: سقوط الموحدين ص 89.

القوة والأسلوب. كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاوضة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية، وثانيا إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدون في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الأسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم وبهذا فقد بن مردنيش الكثير من حلفائه الأسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدون يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب أماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وإن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مال إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدون، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشد في تصرفاتها، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجال دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبليل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون. ومنها أنه قتل وزيره ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنها الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جدا من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبا وخاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام 567 هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبموته قدم آل محمد بن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدون وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية⁽¹⁾.

(1) انظر : سقوط الموحدون ص 90، 91.

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحيدين :

فقد تأثرت دولة الموحيدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الأسبان أولاً ثم أمراء الأندلس ثانياً ثم المغاربة ثالثاً وبالرغم من أن الموحيدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، لقد استطاع ابن مردنيش ان يقف فترة طويلة أمام الموحيدين وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحيدين، واستنزافه للكثير من جهودهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحيدين منذ قيامها⁽¹⁾.

ثالثاً : الثورة في المغرب الأقصى :

وفي عام 559 هـ - 1164 هـ قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحيدين يوسف بن عبد المؤمن وتزعم تلك الثورة مرزوغ الصنهاجي وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة وقام الثوار بمهاجمة النواحي ودخلوا تازا، حيث قتل رجالها وسي نساءها واحتوى أموالها ولم يتوان خليفة الموحيدين في إرسال جيشا للثوار ففرض جمعهم وقضى على زعمائهم⁽²⁾.

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ 560 هـ فقد تبعتها ثورة كبيرة أخرى، قادها سبع بن منحفاد وخلفه قبيلة غمارة وكانت هذه

(1) انظر: سقوط الموحيدين ص 91، 92.

(2) انظر: المصدر السابق ص 75.

الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين ولذل خرج لهم الخليفة الموحي على رأس جيوشه الجرامة للقضاء عليها وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنين وستين وخمسةائة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلى هذا الجبل. وكانت هذه الهزيمة سببا في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين وأصبحت قوات الموحدين تبرز انتصاراً بعد انتصار وتلاحق المتمردون من الثوار حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منقاد ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره وكان ذلك في عام 562 هـ. وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على الثورة التي هزت كيان دولتهم وأضعفت قوتهم وأوهنت شوكتهم وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين.

غير أن الموحدون ما كادوا يقضون على ثورتي صنهاجة وغمارة، حتى التهمت ثورة أخرى في سنة ثالث وستين وخمسةائة (563 هـ)، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصى ونواحيه وجر د جيش موحي قوي إلى الثوار، بقيادة السيد أبي حفص عمر، تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رؤوسها.

بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدون بعض الوقت وهدأت البلاد، سواء في المغرب أو الأندلس، ودخلت دولة الموحدون في فترة من الهدوء عمها الاطمئنان والراحة، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية⁽¹⁾.

رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى :

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة بن الرند في عام 575 هـ واستطاع علي بن المعز بن المعتز الرندي أن يتخلص من حكم

(1) انظر: سقوط دولة الموحدون ص 96، 97، 98.

الموحدين في قفصة وساعدته عدة أسباب في تحقيق هدفه منها، ما فعله قراقوش التقوى من أعمال ضد سيطرة الموحدون ونجاحه في الاستيلاء على الكثير من البلاد من أيدي الموحدون وكان قراقوش هذا مرسل من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد وكما أن الانشغال الذي حدث للموحدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة، وخاصة وأن قراقوش التقوى اشتهر صيته في أفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه قبائل من بني هلال وبني سليم، فخشيت دولة الموحدون من اندلاع الثورات وانتشار أعمال التمرد ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدنى بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم ولذلك بادر خليفة الموحدون يوسف بن عبد المؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام 575 هـ واستطاع يوسف بن عبد المؤمن أن يحتل قفصة في عام 576 هـ ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات أفريقية ومدنها، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها، وبعد أن رتب الخليفة أمور أفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد ثورة التمرد على ابن الرند الذي لجأ إلى الخليفة مستسلماً وتائباً وطالبا للعفو عند حصار الموحدون لمدينة قفصة⁽¹⁾.

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحدون في تشجيع ملوك وأمراء الأاسبان، على الطمع في دولة الموحدون، وأحييت فيهم روح القتال والحرب التي كادت تنتهي في عهد عبد المؤمن بن علي ولذلك تجددت روح العداء للموحدين من جديد⁽²⁾.

(1) انظر: سقوط الموحدون ص 100.

(2) انظر: سقوط الموحدون ص 101.

خامساً: غزو الخليفة الموحد لبلاد الأندلس :

لما استتب الأمر ليوסף بن عبد المؤمن في بلاد المغرب، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى أسبانية في صفر سنة 655هـ / 1171م، واستطاع ان يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذي توفي عام 567هـ فتنازل أبناؤه على أملاكهم كلها للموحدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصرارى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصرارى، حقق فيها نجاحات رائعة، ثم عاد إلى مراكش عام 571هـ / 1176م بعد أن بنى جامع أشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسراً على وادياها.

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها، برية وبحرية ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصرارى، عبر إلى الأندلس في صفر 580 هـ / 1184م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء على المسلمين ووضع خطة تقضي أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتاله وليون، بينما تشغل قوات إسلامية أخرى تزحف من الجنوب قوات النصرارى القشتالية والليونية، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة، وقوى مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجهاً إلى بطليوس، معتزماً حصار اشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضرها بالآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها، وذلك في 22 ربيع

الأول سنة 580 هـ وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبر القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجرمين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شمالها وغربها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي أشبيلة ان ييكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه أشبيلية وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافا لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي، وأخيرا ذبوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام، ترتب عليه ان غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من

القلعة، ومهاجمة المسلمين⁽¹⁾، ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبقى لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقا بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطا، انه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال، وأخيراً طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخاً بدمائه⁽²⁾.

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين⁽³⁾.

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في 12 ربيع الأول 580هـ / 24 أيار (يوليو) سنة 1184م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى اشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن⁽⁴⁾.

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس :

لم يستطع السلطان يوسف عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها :

(1) انظر: الأراك شوقي أبو خليل ص 42.

(2) انظر: الأراك شوقي أبو خليل ص 42.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: المغرب الكبير (2/ 801).

1- لم تكن قيادة يوسف بن عبد المؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحيدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحيدي وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام 567 هـ حيث كان قرار الغزو جاء متأخرا عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحيدي والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو وأحيانا فهو قرر ان تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم انه أثناء مسيره إلى وندة، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

2- ومما يعيب كفاءة خليفة الموحيدين، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

3- كانت للخليفة الموحيدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخليفة الموحد بدلا من ان يكون مشرفا على تسيير دفة المعارك وهو القائد الوحيد والمسؤول الأول، مشغولا بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحيدين تحاصر مدينة وندة جاء احد قادة الموحيدين وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر، لم يلتفت إليه واستمر في مناقشة تلك المسائل⁽¹⁾.

4- لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحيدين ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها

(1) انظر : سقوط الموحيدين ص 120.

والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحدين.

5- انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها ونفيهم من البلاد ووصل الأمر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث:

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسؤول الأعمال المخزنية في اشبيلية وثبتت عليه خيانتته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتحن في نفسه طويلا ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام 573هـ⁽¹⁾.

6- انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبد المؤمن في عام 571 هـ واستمر لمدة عام تقريبا، بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحدين منهم أربعة من أبناء عبد المؤمن بن علي. وقد أصيب الخليفة الموحي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنها شفا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهر، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها⁽²⁾.

(1) انظر: سقوط الموحدين ص 127.

(2) المصدر السابق ص 129.

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي. وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين وقد كان قادماً من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام 571هـ وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس، أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات اثر مادي ومعنوي سيء على الرعية وشجعت هذه الظروف العصبية التي تمر بها دولة الموحدين بمالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعبت في بلاد الأندلس بالفساد⁽¹⁾، وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة⁽²⁾، ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون ان يقوموا برد حاسم على التو والحين⁽³⁾.

7- تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدى: هذه القبيلة ينحدر - منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة 578 هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدى في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين: الأمر الأول وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت وخوفاً من التفاف قبائل الموحدين حولها. والأمر الثاني: فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهماً لخزنة الموحدين، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزنة بضربة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة 578 هـ على رأس قواته. ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبه

(1) سقوط دولة الموحدين ص 129.

(2) البيان المغرب (3/ 110).

(3) انظر : سقوط دولة الموحدين ص 129.

واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته لقد كان لهذه الثورة أثراً في إضعاف شوكة الموحدین واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم⁽¹⁾.

8- ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدى وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين ويظهر ضعف تكتيكة العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل ذلك في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما أتاح للموك وأمراء الأاسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدین وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الأاسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدین متفرقين مع حالة الضعف تؤدي إلى انهزام النصارى⁽²⁾.

9- استطاع النصارى أن يوحدا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدین ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم⁽³⁾، هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدین من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامى تحت لوائهم ونفوذهم وسلطتهم لقد كان يوسف بن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامى كله وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدین أبو العباس ابن عبد السلام الجراوى في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدین يوسف بن عبد المؤمن:

ستمك أرض مصر والعراقا ويجري نحوك الأمم استباقاً⁽⁴⁾

(1) انظر: سقوط الموحدین ص 131.

(2) المصدر السابق ص 145.

(3) المصدر السابق ص 154.

(4) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس العبادى ص 115.

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ولم يتيح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قاداته ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالأسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى انه مات اثر مرض أصابه أثناء الحصار⁽¹⁾.

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي⁽²⁾.

(1) انظر: معالم تاريخ المغرب والاندلس حسين مؤنس ص 194.

(2) انظر: نفس المصدر ص 194.

المبحث الثالث

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً اسمه وشيء من سيرته:

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب - كان صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو، جميل الوجه أفوة أعين شديداً الكحل ضخماً الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمر ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاية وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجدته ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهلته وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات⁽¹⁾.

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين⁽²⁾.

(1) وفيات الأعيان (4/7).

(2) وفيات الأعيان (4/7).

أ- إصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة بن تومرت⁽¹⁾ وجالس الصلحاء والمحدثين ومال إلى الظاهر، وأعرض عن كتب المالكية، وأحرق ما لا يحصى من كتب الفروع⁽²⁾.

قال عبد الواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بها، فتحرق، وتهدد على الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من «الكتب الخمسة»، و«الموطأ»، ومسند ابن أبي شيبة ومسند البزار وسنن الدراقطني وسنن البيهقي وكان يملئ ذلك بنفسه على كبار دولته وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة⁽³⁾. وكان لا يحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل، قال مرة لعبد الواحد بن علي: (أنا انظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين، رأيت المسألة فيها أقوال، ففي أيها الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أعين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى «سنن» أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف⁽⁴⁾ قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب، والاطلاع ما دمت على أصول أهل السنة والجماعة وهذا ما فعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين محمود زنكي حيث ترك مذاهب أهل السنة والجماعة تنشط في دعوتها ودعم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفياً واهتم بالمحدثين ووفر لهم ما يحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم وكذلك القراء والحفاظ وبذلك الفعل الجميل استطاع ان يجند أهل السنة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارى وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى.

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (316/21).

(2) نفس المصدر السابق (313/21).

(3) المصدر السابق نفسه (314/21).

(4) المصدر السابق نفسه (314/21).

إن هذا التضييق الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب تفجر الثورات الداخلية متواجداً.

لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادئ نظرة معادية اتسمت بالحقده والكرهية، على أنهم من غير أهل الإيثار فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ما جاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله: (لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت من مذهبات الشعر بضاعتي من أخلاق الأدب رضاعتي)⁽¹⁾.

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحي وأولاده وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعجم واعمله في رقاب الأمم.. ولو أن للعلم لساناً والورقة إنساناً لتألت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسألة آفاعي أنجح)⁽²⁾.

وهذا أبو الوليد محمد بن عبد الله القرطبي، الذي يصف المقرئ أحواله في كتاب نفح الطيب بقوله: (وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره في قرطبة وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال فوالله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدث بقوص بالموطأ ثم قال، ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون ما أنا إلا هربت منه إليه، ثم دخل اليمن رآها قال: هذه أرض لا

(1) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، د. علي احمد ص 86.

(2) نفس المصدر السابق ص 85، 86.

يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه إلى الهند، حيث أدركته منيته بها سنة 551هـ وقيل باليمن⁽¹⁾.

ولله درّ الإمام مالك في نصحه لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، وقد نزل عن شماله إلى بساط، وإذا بصبي يُخرج ثم يرجع، فقال: أبو جعفر: - أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك، وحقيق أنت بكل خير، وخليق بكل إكرام، يقول مالك: وقد كان أدناني، وألصق ركبته بركبتي، فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فقال: بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بساء الذهب، ثم أعلقه في الكعبة، وأحمل الناس عليه. فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأياً هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أني لا أرى أن يعلق في الكعبة⁽²⁾.

وفي رواية: يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد، فأفتى كل في مصره بما رآه «فلم يزل يؤخذ عنهم كابرأ عن كابر إلى يومنا هذا، فإن ذهبت توهم عمأ يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفرةأ، فأقر كل أهل بلد على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك⁽³⁾».

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ولا يمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته وإن كان الرجل استطاع

(1) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربية في المشرق ص 87.

(2) انظر: الإمام مالك بن أنس، عبد الغني الذقر ص 133.

(3) نفس المصدر السابق ص 134.

أن يصلح بعض الانحرافات العقديّة عن الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت⁽¹⁾ وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجبلي ما قرأت؟ قال: توالي الإمام - يعني ابن تومرت -، قال: فزوروني⁽²⁾، وقال ما هكذا يقول الطالب! حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت من السنة، ثم بعد ذلك قل ما شئت⁽³⁾.

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح يقول تاج الدين ابن حموية: دخلت مراکش في أيام يعقوب، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملة، يقصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذب موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مهيباً، حسن الصورة، تامّ الخلافة، لا يرى منه اكفهاً، ولا عن مجالسه إعراض، بزيّ الزهاد والعلماء، وعليه جلاله الملوك، صنف في العبادات، وله «فتاوى»، وبلغني أن السودان⁽⁴⁾ قدّموا له فيلاً فوصلهم، وردّه، وقال: لا نريد أن نكون أصحاب الفيل وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبيّ، وعشرة معلمون. حكى لي بعض عماله: أنه فرق في عيد نيّفاً وسبعين ألف شاة⁽⁵⁾.

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمرٌ، فزع إلى قبيلته، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (21/316).

(2) أي انظر إليه نظرة الغضب.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (21/316).

(4) تطلق على بلاد غرب أفريقيا وجنوب الشمال الأفريقي سابقاً.

(5) انظر: سير أعلام النبلاء (21/314).

قبيل لهم إلا أنا، فعظموا عند الموحدين⁽¹⁾.

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للضبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة واهتم بالمرضى وبنى لهم مارستان وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين ديناراً للأدوية، وكان يعود المرضى في الجمعة⁽²⁾.

ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطب والهندسة⁽³⁾.
وحارب الخمر في ملكه وتوعد عليها فعدمت⁽⁴⁾.

قال عنه ابن كثير: (كان ديناً حسن السيرة صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعي واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله)⁽⁵⁾.

وقال عنه ابن العماد: (ذكياً شجاعاً مقداماً محباً للعلوم كثير الجهاد ميمون التقية ظاهري المذهب معادياً لكتب الفقه أباد منها شيئاً كثيراً بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر)⁽⁶⁾.

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا استبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور إنما كان من أجل

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق (315 / 21).

(3) سير أعلام النبلاء (317 / 21).

(4) نفس المصدر السابق (318 / 21).

(5) البداية والنهاية المجلد السابع الجزء (22 / 13).

(6) شذرات الذهب (321 / 4).

مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطيع أن يفرد لها دون غيرها حتى لا يثير الناس⁽¹⁾.

إن هذا السلطان طلب من أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري - أحد المقربين إليه أن يشهد له بين يدي الله عزّ وجلّ بأنه لا يقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت ولم يكتف المنصور بهذا بل أنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسنة واستئصال ونبد تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أودعا إليه «لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت..»⁽²⁾.

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاؤا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذي تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: «.. يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فرع إلى قبيلته وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا فمهما ناهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فرعهم وإليّ ينتسبون»⁽³⁾.

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل من دعوة بن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم بن تومرت، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات، لئن ما تحمله دعوة بن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها (إن الله لا يصلح عمل المفسدين..) (فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...)

(1) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحاً.

(2) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص 575.

(3) انظر: نفس المصدر السابق ص 576.

إن المنصور الموحدي لم يعلن صراحة بطلان ما دعا إليه بن تومرت، لأن الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى، لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم قد لا يستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلا شك جعله يكتفي ببيان موقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها ولكن وبالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهد، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج ايجابية وطيبة، حيث أنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى الكثير من الموحدين لا سيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وإنصاف، فبانت لهم حقيقتها وما تحملته من جنوح في تفكيرها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئاً فشيئاً¹.

ثانياً: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور، ثالث الخلفاء الموحدين، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرى الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين، فان خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم، وكانت تحت أمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص 575.

الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة⁽¹⁾.

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة العسكرية، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى⁽²⁾.

أ- الصراع مع بني غانية المرابطين:

استطاع بنو غانية أن يقودوا ثورة في المغرب الأوسط ضد الخليفة أبي يعقوب يوسف المنصور واستطاعوا أن يحتلوا مدينة باجيه بأربعة آلاف من الطوارق المثلثين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة.

كان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخاه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام 541هـ/ 1146م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط

(1) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص 194.

(2) المصدر السابق ص 195.

الموحدين سلطانهم على الأندلس ظل بني غانية لا يخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مراد بن عام 567هـ / 1171م) وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي وكان على حكم جزر البليار في ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين لكن أخوته عزلوه ورفضوا ذلك ولوا بدلا منه أخاه علي بن إسحاق الذي بادري إعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الزمن.

ويرجع أصل بني غانية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين.

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين وكانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطونيا وساروا على سنة أسلافهم في العقائد والتزام منهج أهل السنة والدعاء للخليفة العباسي في بغداد واتخاذ أليتهم السوداء شعاراً لهم وها دنوا الموحدين بعض الوقت ولما مات الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيء استغل بنو غانية هذا الاضطراب واطهروا العصيان وخرجوا عن سياسة المهادنة واستولوا على أسطول موحي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجلهم إلى المغرب الأوسط عام 581هـ / 1185م وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش التقوى وأعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفع شعارهم وأصبح المغرب الأوسط والأدنى تابع وخاضع لأتباع الخلافة العباسية.

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع للقضاء على بني غانية، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وأفريقيا وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية اتباع قراقوش وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والإحسان وشرع في إرسال الجيوش تتلوها الجيوش وانكسرت بعض

جيوش الموحدين وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحدين إلا أن السلطان يعقوب بن يوسف استمر في إرسال الحملات وفقد الألوف من جنوده ومن خيرة رجاله، وأنفق الملايين من الأموال وكان بنو غانية وحلفائهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثوا أن يعودوا من جديد واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن في النهاية استطاع أبو يوسف يعقوب بن يوسف ان يسحق هذه الثورة العنيفة ويقبض على زعمائها وقاد العمليات العسكرية بنفسه عام 582هـ / 1168م وجعل من مدينة تونس مقرا لقيادته واستطاع بفضل حزمه شجاعته أن ينتصر على الثوار وفر علي بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام 584 هـ وانضم إلى جيوش الموحدين كثير من الأعراب والأترك واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غربا. لقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاية، واهتم بإدارة الأموال، ونقل معه كثير من القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، ليستخدمها في الجهاد ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة.

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحد من الداخل، وأمن خطر القبائل العربية ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس، لقد كان هذا العمل الحاسم القوي في توحيد الجبهة الداخلية سببا من أسباب انتصاره على النصارى في الأندلس في معركة الأراك الكبيرة. لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم وهذا يدل على عمق تفكيره الإستراتيجي وبعد نظره العسكري⁽¹⁾.

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي 31 / 224 إلى 227.

إننا ونحن ندرس التاريخ أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرة ألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم وهذا الهدف السامي الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السنة والجماعة وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود.

إن تحرير البيت المقدس ما تم ذلك الفتح الميمون إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام وإزالة البدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدرج المدرس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية.

ب - جهاده في الأندلس :

بعد استشهاد السلطان الموحيدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس 580 هـ هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين :

1- انشغال الموحيدين بثورات قامت في أفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

2- الخلاف الذي وقع بين ملوك الأاسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين «مارتن دي بسيرجا» مطرانا لطليطلة، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الأاسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقده حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم، فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى،

وسيقت الماشية، وسُبي المسلمون العزل رجالا ونساء، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب⁽¹⁾.

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتاله واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطابا يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوهُ إلى القتال. وهذا هو نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

«باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد.. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الخنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلاصهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وانتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا، وقد حكى لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاما بعد عام، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجرد إلى جواز البحر سبيلا لعله لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك واعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلي جملة من عبيدك بالراكب والشواقي والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن

(1) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشياخ (2/ 81).

كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى»⁽¹⁾.

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مرقه وكتب على ظهر قطعة منه: ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ (سورة النمل، الآية 371). الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتِبَ إلا المشرفية عنده ولا رُسِلَ إلا الخميس العرمم⁽²⁾

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يداع الخطاب في جنود الموحدين ليشير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد، وأمر السلطان الموحي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيدانا بالدعوة العامة إلى الجهاد، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس.

ودوّت صحبات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقا على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطرا على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى

(1) وفيات الأعيان (6/7).

(2) وفيات الأعيان (7/7).

والهضاب والشواطئ والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في أسبانية، وبدأ الخطر الداهم يندر الغرب في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في 20 رجب سنة 591 هـ، ولم يسترح بها إلى قليلا، ثم بادر بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولا إلى اختراق قلب أسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يجارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأراك، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة 591 هـ / 1195 م، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة⁽¹⁾.

ثالثا: معركة الأرك:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومترا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي أنه، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه. تجهز الفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون وونبارة⁽²⁾ واستفز كل ملوك أسبانيا المسيحية واستصرخ البابا في روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة

(1) انظر: الأرك، شوقي أبو خليل ص 53، 54.

(2) المصدر السابق ص 54.

ومتمازة في الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوربية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ (150 ألف جندي) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الإسلامية⁽¹⁾. وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرّت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك⁽²⁾.

خطة الموحدين :

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضح خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائدا عاما للجيش كله، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيى بن أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم، وهو ما لم يتبع دائما، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا من الجيش ينضوي تحت

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي ص 231.

(2) انظر: معركة الأرك ص 55.

لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية، فقد نصح عبد الله بن صناديد بان يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهي المؤلفات من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحديين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب ان يربط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبدتها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها، وأمر بتنفيذها¹.

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاقة عام 479 هـ وهذا يدل على اهتمام أبي عبد الله ابن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الأسباب القديمة في الحرب، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى ترغم قوى المسلمين الجراة على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو ل حلول الشتاء، ولكن ألفونسو رأى - وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصاً وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يجرز نصراً باهراً على جيش الموحديين².

وفي 9 شعبان 591هـ/ 8 تموز (يولية) 1195 كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة. وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماسهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى في نومه فارساً بهي

(1) انظر: معركة الأرك ص56.

(2) انظر: معركة الأرك ص57.

الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، ويده راية خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقوله له : إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله.

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوربية الكنسية بستائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى⁽¹⁾، فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناته وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة، ولا سيما حملة النبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتح القتال، وهم جميعا يضطرمون شوقا إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى⁽²⁾. وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم : «اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم»⁽³⁾.

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم⁽⁴⁾.

وقام وخطب وحرص على الجهاد وبين فضله ومكاته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق ص 58.

(2) انظر : معركة الأرك ص 58.

(3) صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد العضاني (6/ 240).

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) انظر : تاريخ الأندلس لعبد الرحمن الحجي ص 486.

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال⁽¹⁾.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه يحاول اقتحامه على اثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين الثقيلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفِع من على⁽²⁾.

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: «فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابا تتلوها أسرابٌ، وأفواجا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفَعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال «أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نيانتكم وأحضرُوا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدما بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته»⁽³⁾ لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسماً منها،

(1) انظر: معركة الأرك ص 59.

(2) انظر: معركة الأرك ص 59.

(3) انظر: البيان المغرب ص 194/195.

واضطرب الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله آلاف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيد وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبنالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحيدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالإقدام والشجاعة، حتى أنه لما زحف زعيم الموحيدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطربهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى⁽¹⁾.

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلولا من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحيدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله». ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته⁽²⁾.

(1) انظر: تاريخ الأندلس لأشباخ (2/86).

(2) انظر: الأرك ص 61.

لقد انتهى يوم الأرك هزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية، وغنم المسلمون معسكر الأسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين⁽¹⁾.

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في اشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر⁽²⁾، كما بنى حصناً كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون اقتداء وكان عددهم عشرين ألفاً وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأً لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين⁽³⁾.

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن يتتهد فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة 592هـ/ 1196 بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية «استراما دورة» وعبر النهر الكبير «الوادي الكبير» في اتجاه نهر التاجه، وبعد أن فتح عدة حصون وقللاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع الفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجروا أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة

(1) انظر: روض القرطاس ص 145.

(2) انظر: معركة الأرك ص 63.

(3) المصدر السابق نفسه.

أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً جنوباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهباً لاحتلال طليطلة⁽¹⁾.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب لطلب ملك ناغار وليون وعقد معهم حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة 592هـ/ 1196م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش⁽²⁾.

ولما جاءت رسل الفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

| | |
|--------------------------------|---|
| أهل بأن يُسعى إليه ويُرجى | ويُزار من أقصى البلاد على الرجا |
| مَنْ قد غدا بالمكرّمات مُقلداً | وموشحاً ومختماً ومتّوجاً |
| عمرت مقامات الملوك بذكره | وتعطرت منه الرياح تأرجاً ⁽³⁾ |

رابعاً: نتائج معركة الأرك :

1- ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الأسبان.

(1) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (4/ 215).

(2) انظر: معركة الأرك ص 65.

(3) انظر: الفخ الطيب (1/ 419).

2- سقوط هبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

3- حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

4- ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

5- انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

6- عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.

7- أصيب نصارى الأسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

8- جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.

9- تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورص الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

10- دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بهاء الذهب الصافي.

وغير ذلك من النتائج.

خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك :

لاشك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة منها،

1- الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا ما قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة بن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.

2- اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

3- محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

4- فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه وألزم العلماء بأن لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحد من الأئمة المجتهدين المتقدمين⁽¹⁾، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد⁽²⁾، ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم⁽³⁾.

(1) كان الأولى إن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

(2) انظر: الأعلام للزركلي (8/ 203).

(3) انظر: معركة الأرك ص 71.

5- احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب افریقیة، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسير الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضى ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبد الله ما هذا إلا جدد كبير، ثم استدعى خادما وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئا يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضا، فإنه بالغ في إقامة منار العدل⁽¹⁾.

6- الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة

(1) انظر: وفيات الأعيان (7/10، 11).

الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين وقاد المعارك بنفسه واسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

7- الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبي يوسف إلى الآراء في مجلس حربه وإعطاء لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى واعتمد خطة أبي عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

8- الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد فمثلاً، الأندلسيين يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معنوياتهم وتنشط هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبد الله بن صناديد.

9- جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوفا من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

10- الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحديين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

11- إذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحديين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يذكر والمجاهدين بأحداث الجهاد ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحداث في الجهاد لتملى على الموحديين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحديين.

12- تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

13- سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء ويده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور.

سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور:

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود بن عماد زنكي بتوحيد الشام مع مصر وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة 583هـ فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدى وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة⁽¹⁾.

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً⁽²⁾ جاء فيه:

«الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله الفرض، وأجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الذراري التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه

(1) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (4/216).

(2) الاستقصا للسلاوي (2/163).

صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلت ابن خلدون⁽¹⁾ بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية⁽²⁾.

ولا يبعد أن يكون استنجد صلاح الدين بـيعقوب المنصور الموحدي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحدية لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بجرأاً، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدية لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقيه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى في الأندلس⁽³⁾ وذكر بعض المؤرخين سبباً آخر منع أبو يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع صلاح الدين في غرب مصر، بحروب قام بها بعض أتباعه وخصوصاً قراقوش التقوي الذي حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بني هلال، وابن غانیه الذي كان يدعوا إلى المرابطين، وهذا سبب وجيه⁽⁴⁾.

(1) انظر: العبر (6/490).

(2) انظر: تاريخ الإسلام (4/216).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: معركة الأرك ص 70.

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية في مصر ساءهم، لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ولاسيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه⁽¹⁾. وقد أثار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر⁽²⁾.

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحي يعقوب المنصور:

| | |
|--------------------------------|--|
| إن الخلافة نالت من محاسنكم | أوفي الحظوظ فأبدت منظراً عجباً |
| أعلى المراتب من بعد النبوة قد | حباها الله أعلى الخلق وانتخباً |
| سينظم السعد مصرأ في ممالكه | حتى يدوخ منها خيله حلباً |
| إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى | أقصى خراسان يتلو جيشه الرعباً |
| هو الذي كانت الدنيا | وكل عصر له ما زال مرتقباً ⁽³⁾ |

تؤمله

لاشك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي، وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية لقد صرح سلطان الموحي المنصور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر ما فيها من المناكر والبدع، وقال نحن ان شاء الله مطهروها.

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب ص 114.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (315/21).

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب للعبادي ص 115.

وُلُم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله⁽¹⁾.

إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله. ولاشك أن أمراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا. ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم. فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها. وذلك حتى تكون هذه المراكز خط دفاع الأول وإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية. وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها⁽²⁾.

لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلعة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم⁽³⁾.

وقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتاً أعطاه بكل بيت ألفاً.

ومن القصيدة:

سأشكر بحراً إذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحلُ
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى إلى سمت بالذكر منه الأوائل

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص 198.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) سقوط الموحدين ص 198.

إليك أمير المؤمنين ولم تنزل إلى بابك المأمول ترجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقناً بأن نذاك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصيدك العلا فبلغتها وأدنى عطياك العدد والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانياً تبلغك الآمال ما أنت أمل⁽¹⁾

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحيدي ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: (... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولايته»⁽²⁾.

لو التقى صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظر ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحيدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ولكن الله غالب على أمره.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهل المشرق والمغرب، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة، قد

(1) انظر: معركة الأرك ص 74.

(2) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر أحمد موسى ص 39. وانظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 117 للعبادي.

ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشاركة، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين⁽¹⁾.

ويشير الرحالة ابن جبير وكان معاصراً لزمان صلاح الدين إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دوناً عن سائر تجار المسلمين «لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم...» ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي ببقاء الأسرى من المغاربة: فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم⁽²⁾.

سابعاً: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه:

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين ولقد اهتم بالبناء والعمارة، فسعى لإكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ بناءها والده، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مثذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية، يصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان.

كان عبد المؤمن بن علي قد هدم مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور. ومما ساعد على إقامة هذه المنشآت هذه الأموال

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 118.

(2) راجع رحلة ابن جبير ص 274، 280 نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 119.

الضحمة التي تدفقت على دولته⁽¹⁾.

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من وقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر انه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن في الشام⁽²⁾.

ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي، فقد ذكر ان يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة 595هـ ودفن بتينملل مع آبائه ويبدو ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب⁽³⁾.

يروى ابن أبي زرع ان المنصور لما أشرف على الموت قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها: الأولى: إدخال البدو - العربان - من افريقية إلى المغرب، مع أني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية: بناء (رباط الفتح)، أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر، والثالثة: إطلاق أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الأولى والثانية، وكتب لرباط الفتح ان يعمر، ولكن بعد قرون من وفاته، حيث غصت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس⁽⁴⁾.

لقد توفي هذا السلطان المجاهد الذي أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام

(1) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (217/4).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: معركة الأرك ص 76.

595هـ^١ فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه.

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (319/21).

المبحث الرابع
الخلافة الموحدية
أبو محمد عبد الله الناصر

توفي الخليفة الموحدية يعقوب المنصور عام 595هـ / 1199م وقد أثارت وفاته حزناً عميقاً في الأوساط الإسلامية المغربية ذلك لأن كثير من الناس كذبوا وفاته وقال البعض أنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يربط في ثغورنا لجهاد الكفار وقال البعض الآخر بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفى أمره وقال فريق ثالث بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك. وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينملل⁽¹⁾ إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد، وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشرة عاماً حيث إنه ولد في عام 576هـ / 1180م.

وتولى الحكم عام 595هـ / 1199م وقد كان شاباً طموحاً معتزلاً بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين، وأستبد بالأمور ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهيم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا ان أبا محمد عبد الله الناصر استبد بالأمر⁽²⁾.

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/236).

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/236).

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين واستطاع عبد الله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منها في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عدّ وحده بخمسة مائة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملقب بالملثم يعبه للعظام ويستدفع به المهيات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها إنقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام 529هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما احتل هذا سرقسطة وتطليه وقلعة أيوب.

وليّ علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً إلى أن مات، وبموته كانت أولى الفتنة على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الأندلس الفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما أشدت خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها إلى جزيرة البليار (منورقة وبابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فأّمه بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

واقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب إيطاليا جنوب فرنسا-

فيغتم وينكى في الأعداء أشد نكاية، وأشدت بذلك عوده وقوى أمره، وتشبه بالسلطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى ان توفي عام 579هـ.

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادتهم واشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة 578هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه ان لم يلبي مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه، فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى الدخول أسلم لحماية الأنفس والأعراض، وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة، فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى واستطاع الخليفة الموحد المنصور ان يكسر شوكته وجرّد الجيوش لحربه وقادها بنفسه واستطاع أن يجمّد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وأفريقية وطرابلس بحد السنان ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبيين⁽¹⁾.

ومع وفاة الخليفة الموحد المنصور عاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على افريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبد الله بن غانية قد حاول في عام 596هـ/ 1200م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليفة الموحد الجديد أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في افريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في افريقية لهذا صمم الناصر على بسط

(1) انظر: العقاب، شوقي أبو خليل ص(15،16).

نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص.

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت 24 ذي حجة 599هـ / 1203م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبي سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراکش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك 600هـ / 1203م وأقيم عليها عبد الله بن طاع الله الكومي والياً عليها وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام 601هـ / 1204م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا وأقام الناصر الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحد الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في إفريقية ونستطيع أن نقول أن عام 604هـ الذي كانت فيه موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها وشتت جموعها وأحلافها وفي عام 631هـ / 633هـ / 1334م أو

1236م توفي يحيى بن إسحاق ابن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان⁽¹⁾.

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم، لأنهم رأوا في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصادقها للإسلام الصحيح وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وأفريقية لمدة تزيد عن أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحّدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة.

ثانياً : جهاد الناصر لدين الله في الأندلس:

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك فشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصيناً قوياً عام 1209م ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يحمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 236 إلى 240).

وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك نحو وصمة هزيمة الأرك، بإحراز نصر على الموحدين⁽¹⁾.

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت واستطاع الأسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وان يدعوا نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس⁽²⁾.

وشرع النصارى الحاقدين في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبي منهم جموعاً كبيرة.

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله الجهاد، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب، وقسمها إلى خمسة جيوش:

1- الجيش الأول من قبائل البربر.

2- والثاني من الجنود المغاربة.

3- والثالث من الجنود الموحدية النظامية.

4- والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

5- والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبد الله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي 25 ذي القعدة سنة 607هـ أوائل أيار (مايو) سنة 1211م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى أشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح⁽³⁾.

(1) انظر: معركة العقاب، شوقي أبو خليل ص 23.

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 240).

(3) انظر: معركة العقاب، شوقي أبو خليل ص 23.

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداده بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سَلْبَطْرَة، فأنهك بذلك قواهم، ولبت الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه، وأصر أبو عبد الله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد ابن جامع وكان الموحدون يشكون في صدق نيته - ولكن أبا عبد الله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً فيوماً.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفتح ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليشيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي ننساهم في كفاح الصليب المقدس⁽¹⁾.

وقام البابا أنوسان الثالث بدور كبير في نفخ روح الحمق في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسة (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه - أي البابا- يمنح كل من لبي الدعوة الغفران التام)⁽²⁾.

(1) انظر: العقاب ص 26.

(2) انظر: العقاب ص 28.

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الأسبان وكان الأساقفة يرئسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الإنفاق على حشودهم⁽¹⁾.

ووفدت على اسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك، وهو أن يحمل بذلاقتة وضراعتة ملك نافار - بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة - أولاً على أن يؤيد قضية اسبانية بالمال والجند، ثم - وهو الأهم - على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدرو الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت إمدادات ليون وجليقية والبرتغال، وكانت قوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم، فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعيادات لقد اشتركت أوروبا فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغربية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء⁽²⁾.

وفي روما، أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والاكتفاء بالخبز والماء التماساً

(1) المصدر السابق ص 29.

(2) انظر: العقاب ص (30، 31).

لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الإكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الأسبان.

وفي 20 حزيران (يونيه) 1212م، تاهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعدادهم ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لوبيز دي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بُرْدَال) وأسقف نانت.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدور الثاني، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، ودرريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة آخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدتهم الضخم الكبير⁽¹⁾.

أ- حصار قلعة رباح:

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونيه) 1212م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه بعد ذلك ساروا

(1) انظر: العقاب ص32.

إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصانير والخوازيق الحديدية.

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصاراً طويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ويقول يوسف اشباخ⁽¹⁾: (وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة افتتاحها، وأن يُبدأ بالسير توالماً لمهاجمة المسلمين)⁽²⁾.

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن⁽³⁾.

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

(1) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (2/ 113).

(2) انظر: معركة العقاب ص 31.

(3) انظر: معركة العقاب ص 32.

وعلى اثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، الفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، بيدروا الثاني ملك أرغوني نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشا لم تخرج اسبانية النصرانية مثله من قبل، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر «ورادال» في جبال سيارا مورنيا «جبل الشارات» لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى⁽¹⁾.

ب- مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجّاج:

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجّاج وبدس من وزيره أبي سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهارا، فكان لهذا الفعل أثر سيء في الجيش الإسلامي كله، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون ان ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر⁽²⁾.

قلت: وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغراء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

(1) المصدر السابق ص35.

(2) انظر: العقاب ص36.

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار.

ج- المعركة :

قام ملوك الأسيبان في صباح 16 تموز «يولية» بترتيب جندهم لخوض المعركة، فربط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الرُّبى، تزعم الفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

1- تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها «ديجولوز».

2- وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاستبارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت «جونزالونونيز دي لارا».

3- والفرق الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش، وبسكونية، ويقودها الكونت «ردريك دياز كاميروس».

4- وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها الفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلا عن المطران «ردريك الطليطي»¹¹، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم.

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

(1) انظر: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين لأشباح (117/2).

أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضا إلى أربع فرق، ويتألف كله من قوات أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدروا، ومن حوله الأبحار والأرغونيون.

أما جيش الموحدين، فقد قسّمه أبو عبد الله محمد الناصر تجاه جيش النصرارى في سهل «تولوزا» وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق.

كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوّعة، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم، ويدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل. واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربة والنظاميين، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين. وضرب أبو عبد الله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، ربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقته¹، إذانا باقتراب المعركة، ومن حوله حرسه من مشاة وفرسان. وشهر الجند حراهم في اتجاه معسكر النصرارى الأسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت.

ولما تمّت استعدادات المعركة، خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوي بشدة في ساحة المعركة²، وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفا قويا ولكنهم لم يستطيعوا ان يخترقوا صفوف النصرارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاستبارية والدواوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين، وان

(1) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (2/ 118).

(2) انظر: العقاب ص 42.

يمزقوها. واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حُشدت صفوة الجند، لقوا اشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فآرّين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم.

ولما رأى ملك قشتالة من الرُبي تطور المعركة على هذا النحو السيئ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والظليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلّف القوة الاحتياطية، وان يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: «إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد»⁽¹⁾.

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد. ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأبحار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم.

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجلبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة، ليلّموا شعثهم، وينظّموا جمعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطّمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناح الجيش الإسلامي قد حُطّمًا، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتّب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة،

(1) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (2/ 118) نقلًا عن العقاب ص 45.

فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجاه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها، بل سار منها إلى أشبيلية.

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة.

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جدا وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوروبا كلها يدفعهم الحقد الصليبي، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم⁽¹⁾.

لقد استشهد في هذه المعركة الألاف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء :

1- أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضري (542-609هـ). من أهل شاطبه، صاحب التأليف الذي «كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يحل بحفظ شيء منها. موصوفاً بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما أذن في المساجد، وله تأليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر.. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها. وكانت السبب الأقوى في تحييف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حياً ولا ميتاً وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستائة..»⁽²⁾.

(1) انظر: العقاب ص 46، 47.

(2) التكملة (1/ 101-102) رقم 262 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 494.

2- القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية «فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر لصفرة سنة تسع وست مئة...».

3- أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري. من أهل سبتة، الذي «استوسع في الرواية. وكان معروفًا بالزهد، واستشهد في كائنة العقاب»⁽¹⁾.

4- أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس «كان زاهداً، عابداً، معلماً بالقرآن له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستة مئة، فأقام هنالك أياماً يلقي الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره...»⁽²⁾.

5- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة «ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ...» واستشهد في وقعة العقاب منتصف سنة 609⁽³⁾.

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

1- الإعجاب بالكثرة، وكان غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بالآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على

(1) المصدر السابق (1/ 202) رقم 536 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 495.

(2) المصدر السابق (1/ 235) رقم 623 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 495.

(3) التكملة (2/ 585-586) رقم 1559 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 495.

الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه، ألا وهي: «صدق الرحمن وكذب الشيطان»⁽¹⁾.

2- لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطره وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدى لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

3- ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتما في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

4- سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وإن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحب الأندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

5- إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوروبا وجعل الحرب مقدسة من اجل العقيدة.

6- الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدىين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم⁽²⁾.

(1) انظر: العقاب ص 50.

(2) انظر: العقاب ص 51.

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وياشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيرا من مبانيها، بينما كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحا بنكاية المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة⁽¹⁾.

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية في مدينة بياسة. يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين⁽²⁾: «ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءة قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعا بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوى الظفر في قسوتهم وبتشهم إلى أسفل درك، حينها هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل، وكان المسلمون يأملون نظرا لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء.

ونظّم النصارى في الواقع على المدينة هجوما عاما خسروا فيه كثيرا من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وان يمتلواها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان، وعندئذ رأى الملوك، أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينها سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين

(1) انظر: العقاب ص 52.

(2) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (2/ 123).

قد خشوا العقابة، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب «مليون دينار»، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقا لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظرا لما أنسوه من صعاب في افتتاحها.

ولكن الأحرار الظالمين إلى دماء المسلمين، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلّم المدينة دون قيد أو شرط، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذرا هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدّوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقتل من في أبدة زهاء ستين ألفا، وسُبي مثل هذا العدد، وهُدمت الدور بعد أن خلّت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحرار رضاهم، ورتّلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته⁽¹⁾.

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفائه للعهود واحترامه للأديان.

قال الشاعر :

| | |
|---------------------------|--|
| ملكنا فكان العدل منا سجية | فلما ملكتم سال بالدم أبطح |
| وحللتم قتل الأسارى وطالما | غدونا على الأسرى نمن ونصفح |
| فحسبكم هذا التفات بيننا | وكل إناء بالذي فيه ينضح ⁽²⁾ |

لم تكن موقعة العقاب سببا في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضا. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها

(1) انظر: العقاب ص 53.

(2) انظر: صلاح الدين بطل حطين لعبد الله علوان ص 84.

بيد النصارى.

جاء في نفع الطيب: (كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبِخلاء كثير من قُراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو لها..⁽¹⁾). وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعاً إلى أشبيلية، وهناك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزينا كثيبا ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في اللذات والشهوات ولم يقم بشيء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله وكان يومئذ طفلا في العاشرة من عمره ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملأه وقضى أمدا لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاحب ثم دس له خدومه السم وتوفي مسموما بأمر من وزرائه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في 11 شعبان 610 هـ / 25 كانون الأول «ديسمبر» سنة 1214 م، بعد أن حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر⁽²⁾.

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من اجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد ان ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدا على مخالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية

(1) نفع الطيب (1/ 420).

(2) انظر: العقاب ص 57.

من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدون دماء وأموالاً، وتفككا داخليا وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام 668هـ/ 1269م رغم ان الدولة كانت قد انتهت فعلا عام 1212م وليس عام 1269م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبد الواد في تلمسان وبني حفص في تونس⁽¹⁾.

رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين :

1- ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الأموال وسيهم للنساء بدون وجه حق، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم ولذلك كفروهم واستحلوا دمايتهم وأموالهم وسبوا نساءهم، فافنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحيانا واهية، أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين - يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه وحيث ان دعوة المظلوم مستجابة لقوله ﷺ : لمعاذ بن جبل حين بعثه الله إلى اليمن .. «... واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب».

ومن سنته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا وإن مآلهم

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 248 إلى 253).

إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة والظلمة لها أجل محدود⁽¹⁾.

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدره له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يمين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره الله لها بموجب سنته العامة التي وضعها لأجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله⁽²⁾. قال تعالى: { ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون } (سورة الأعراف، الآية 34). قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: (ولكل أمة أجل)، أي ولو أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين مضروب لاستئصالهم⁽³⁾. ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى⁽⁴⁾.

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آهنتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تبييب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد » (سورة هود، الآيات 100 - 102).

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة ص 119.

(2) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان ص 121.

(3) انظر: تفسير الألوسي (8/112).

(4) انظر: السنن الإلهية في الأمم ص 121.

إن الآية الكريمة تبين إن عذاب الله ليس مقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿كذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة﴾. فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد. فالآية تحذر من وخامة الظلم.

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ «سورة هود، الآية 117»

قال الإمام الرازي في تفسيره: (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد)⁽²⁾.

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: ﴿بظلم﴾ أي بشرك وكفر ﴿وأهلها مصلحون﴾ أي فيم بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط⁽³⁾.

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمر الناس إنما تستقيم

(1) انظر: السنن الإلهية في الأمم والأفراد ص 122.

(2) تفسير الرازي (76/18).

(3) تفسير القرطبي (9/114).

مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق - أي في الآخرة - وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة⁽¹⁾.

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

2- من أسباب سقوط دولة الموحدين، ثورة بن غانية وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة وأعلنت انتماؤها وولائها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

3- ثورات الأعراب المتتالية حيث أن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت افريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحيانا تحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوى ضد الموحدين وأحيانا تخضع لدولة

(1) انظر: من رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح المنجد ص 40.

الموحدين ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين، لقد قدموا الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدين عام 584 هـ ومنذ وفاة المستنصر سنة 620 هـ أصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين. ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر «ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم»¹.

4- ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين، ومن أشهر هذه الثورات، ثورة محمد ابن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليه إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولم يبالي ابن مردنيش ان يتحالف مع النصارى من اجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بلنسية الذي التجأ إلى ملك ليون .

وتقاعس الأندلسيون عن نصره الموحدين لأول فرصة واتتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب².

5- النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا ان يضعوا نظاما ثابتا لتولي الخلافة عندهم :

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم ان يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، وبل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة

(1) انظر: العقاب ص 68.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي عز الدين عمر احمد موسى ص 83.

لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيئة الخلافة، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها. ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد، والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف⁽¹⁾.

أ - ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في 623/ 1226 السيد أبو محمد عبد الله العباسي وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور، فلما خشي الأسيخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر، وظل كل منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال 624 - 633 / 1227 - 1226م) وفي عام 629هـ / 1231م ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بستبة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس. ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة، وانتشرت الفتن، وقلّت المجابي، واستبدت الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبد المؤمن⁽²⁾.

ب - دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالقات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه، فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص 63.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص 84.

ج- إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيخوخة أو باحثين عن ملذاتهم⁽¹⁾.

إن ضعف الخلفاء يسر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها. وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى أدارية أم قبلية أم عسكرية⁽²⁾.

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمر، فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس⁽³⁾.

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانا دائما يسيطون نفوذهم لكيلا يقلت زمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا. ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ⁽⁴⁾.

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن، وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاية الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائيا عن مراكزهم. لقد رافق الضعف السياسي التمثيل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاية ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

(1) انظر: المصدر السابق ص 85.

(2) انظر: المصدر السابق ص 86.

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص 87.

(4) انظر: المصدر السابق ص 89.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري، وحسن ضبطه، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة⁽¹⁾.

6- الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحي:

لا شك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثرا بالغا في التنظيم العسكري للدولة ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعا صحيحا وتنفيذا أكيدا.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب ان يغدوا جيشا قادرا على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحاد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، فبدلا من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من

(1) انظر: المصدر السابق ص 91، 92.

لقد كان إدخال العربان في الجيش الموحيدي كافة على أهدافه ونظامه إذ لا هم لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ولا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأوامر وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقا رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهمون ساعة الصدام الحاسمة⁽¹⁾.

7- الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهاكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشؤون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جل أم صغر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعا بانتجاع البقر والخيل في رياضة وتوفي من طعنة بقرة شرود، والمرضى كان ميالا للدعة والمسألة، ومولعا بالسماع ليلا ونهارا⁽²⁾ وكذلك المقربون منهم.

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك، ولا يهتمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا ينهون عنها لان انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها، قال تعالى: * فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين⁽³⁾

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 95، 96.

(2) انظر: المصدر السابق ص 86.

(سورة هود، الآية: 116). وقوله تعالى: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والعس لها وطلب أسباب العيش الهنيء⁽¹⁾.

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾.

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ سورة الإسراء، الآية 16.

وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجبّارها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم أكد⁽²⁾.

8- تقلص أراضي الدولة في افريقية والمغرب والأندلس:

فتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة

(1) انظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص 186.

(2) انظر: تفسير الألوسي (42/15).

وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها افريقية، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق الأندلس أبو عبدالله محمد بن هود في رجب 625هـ / 1228م في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر بن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم)¹.

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام 626هـ / 1229م زيان بن مردنيش وفي سنة 630هـ / 1233م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام 636هـ / 1239م إلا وقد سيطر على غرب الأندلس².

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام 633هـ / 1236م وبلنسية في عام 636هـ / 1239م، ومرسية 644هـ / 1246م واشيلية 646هـ / 1248م وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت افريقية سنة 627هـ / 1230م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم ان الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال

(1) انظر: البيان المغرب (3/ 269) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص 108.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص 108.

رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهاث بطلب البيعات⁽¹⁾.

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس، وأفريقية بدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل⁽²⁾، فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بني عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية.

9- فتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين والذي توصلوا من خلاله إلى الدولة، فأتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: «ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء»⁽³⁾. ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادئ التي قامت عليها ويلتزمها وتبعد من

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص 109.

(2) انظر: المصدر السابق ص 111.

(3) المعجب ص 191.

يحيد عنها. ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقوياً بهم وولاهم المناصب في الدولة، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيراً ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الإيمان في القلوب فذب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة فالمنصور يصرح بذلك لخاصته والمأمون يمحوا آثارها ويزيل رسومها ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن، ومع مرور الأيام حدث انقسام بين الفكرة والدولة، فتجسد ذلك عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولا ريب أن الفكر ان لم يداوم أصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم⁽¹⁾.

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيف والقوة مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، فجعلت الناس تنسل من المنظومة الموحدية والعقدية وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام، هذه بعض الأسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين.

خامساً: خلفاء الموحدين :

524-558هـ / 1120-1163م

عبد المؤمن بن علي

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص 117.

| | |
|--|------------------------|
| أبو يعقوب يوسف | 558-580هـ / 1136-1184م |
| أبو يوسف يعقوب المنصور | 580-595هـ / 1184-1199م |
| أبو محمد عبد الله الناصر | 595-610هـ / 1199-1213م |
| أبو يعقوب يوسف المستنصر | 611-620هـ / 1224-1313م |
| عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن | 620-621هـ / 1224م |
| أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العاقل) | 621-624هـ / 1224-1227م |
| يحيى بن الناصر | 624-627هـ / 1227-1230م |
| المأمون بن المنصور | 627-630هـ / 1231-1232م |
| الرشيد بن المأمون بن المنصور | 630-640هـ / 1232-1242م |
| السعيد علي أبو الحسن | 640-646هـ / 1242-1248م |
| أبو حفص عمر المرتضى | 646-665هـ / 1248-1266م |
| أبو دبوس الواثق بالله | 665-668هـ / 1266-1270م |

الفصل الثالث

الأندلس والشمال الأفريقي

بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام 668هـ / 1269م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الأسبان في عام 897هـ ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبء والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الأفريقي بعد سقوط الموحدين، فأنقسم إلى دول، لا تتجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولا تتجاوز في أحيان أخرى إطار القبيلة واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزعات الداخلية وتتابع الهجمات الخارجية، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهاها، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة، وخرج من ذلك المخاض الطويل، دول من أهمها؛ دولة بني حفص في افريقية، دولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني مرين (ثم بني وطاس في المغرب الأقصى).

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الأندلس والشمال الأفريقي مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس.

المبحث الأول

مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب الأقصى، وملك محمد بن يوسف بن هود قواعد شرقي الأندلس، وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على أشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال عنيف لتزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض.

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع مما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في 23 شوال 633هـ/ 29 حزيران (يونية) 1236م، صيحة النذير المدوية، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثم والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام 636هـ/ 1238م ثم شاطبة ودانية وفي عام 646هـ سقطت أشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن أشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يُحجر المسلمون بين البقاء في أشبيلية، أو يهاجروا وفي الحال حُول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط أشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها

وبين مصعب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على: شريش، شذونة، قادس، شلوقه، غليانة، روضة، ثغر شتمرية، وغيرها.... وتحالف بن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكشمت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة⁽¹⁾.

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس ووضح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وأشبيلية ومرسيه بيد النصارى. لقد صور الشاعر المسلم أبو البقاء الرندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألماً وحزناً، فلله دره فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر:

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| لكل شيء إذا ماتم نقصان | فلا يغربطيب العيش إنسان |
| هي الأمور كما شاهدتها دول | من سره زمن ساءته أزمان |
| وهذه الدار لا تبقي على أحد | ولا يدوم على حال لها شأن |
| أين الملوك ذوو التيجان من يمن | وأين منهم أكليل وتيجان |
| أتى على الكل أمرٌ لا مرد له | حتى قضوا فكان القوم ما كانوا |
| فجائع الدهر أنواع منوعة | وللزمان مسرات وأحزان |
| وللحوادث سلوانٌ يسهلها | وما لما حل بالإسلام سلوان |

(1) انظر: سقوط غرناطة ص 30.

هوئى له أأءء وانءء ئهلاءن⁽¹⁾
ءى ءلء منه أءءار وبلءان
وأىن شاطءة أم أىن ءىان
من عالم ءء سما فىها له شأن
ونرها العءب فىاض وملاءن
عسى البقاء إذا لم ءبق أركان
كما بكى لفراق الإلف هىان
ءء أفءرت ولها بالكفر عمران
فىهن إلا نواقىس وءلبلان
ءى المناىر ءرئى وهى عىءان
إن كنى فى سنة فالءهر يقظان
أبعء ءمى ءفر المرء أوطان
وماها مع طول الءهر نسىان
أءرك بسىفك أهل الكفر لا كانوا
كأنها فى ءال السبق عقىبان
كأنها فى ظلام النقع نىران
لهم بأوطانهم عز ووسطان
فءء سرى بءءىء القوم ركبان
ءلى وأسرى فما بهءز إنسان
وأنىم يا عباء الله إءوان
أما على الءىر أنصار وأعوان

وهى الءزىرة أمر لا عزاء له
أصابها العىن فى الإسلام فامءنعت
فاسأل بلنسىة ما شأن مرسة
وأىن قرطبة ءار العلوم فكم
وأىن ءمى وما ءوىه من نزه
قواءء كن أركان البلاد فىما
ءبكى الءنفة البىضاء من أسف
على ءىار من الإسلام ءالىة
ءىء المساءء ءء صاءرء كئائس ما
ءىء المءارب ءبكى وهى ءامءة
يا غفلاً وله فى الءهر موعظة
وماشياً مرءاً لىهه موطنه
ءلك المصىبة أنسىء ما ءءمها
يا أىها البىضاء رابىءه
يا راكبىن عءاق الءىل ضامرة
وءاملىن سىوف النهء مرهفة
وراءعىن وراء البءر فى ءعة
أعنىءكم نبأ من أهل أنءلس
كم سىءىء بنا المسءضعفون وهم
ماءا النءاطع فى الإسلام بىنكم
ألا نفوس أىاء لها همم

(1) أءء وئهلان: ءبلان.

(2) نفع الطىب (4/ 486، 487، 488).

يا من لذلّة قومٍ بعد عزهم
 بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
 فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
 ولورأيت بكاهم عند بيعهم
 يا ربِّ أم وطفل حيل بينهم
 وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
 يقودُها العُلج للمكروه مُكرهه
 لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ

أحال حالهم كفر وطغيان
 واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
 عليهم من ثياب الذل ألوان
 لهالك الأمر واستهوتك أحزان
 كما تفرقت أرواح وأبدان
 كأنها هي ياقوت ومرجان
 والعين باكية والقلب حيران
 إن كان في القلب إسلام وإيمان⁽²⁾

«وكان ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء وأمه ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية - قد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس - يهرعون إلى احتذاء مثاله، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة»⁽¹⁾.

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيتها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى⁽²⁾.

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس حاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن

(1) انظر: نهاية الأندلس وتاريخ المتصرين ص 33.

(2) انظر: المصدر السابق ص 34.

النصارى الحرب عليه في عام 660هـ / 1261م، فردّهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدو المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام 662هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتحليصها من يد النصارى.

شددّ النصارى هجماتهم بدءاً من عام 663هـ وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد بن يوسف ابن الأحمر على يد (دون نونو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة 665هـ / 1267م متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصحابه وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الأسيان عام 665هـ / 1267 وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرب⁽¹⁾.

وفي عام 668هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في 29 جمادى الثانية 671هـ (كانون الأول «ديسمبر» 1272م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطّد الملك لبني نصر بقية زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى⁽²⁾.

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 33.

(2) ابن خلدون (7/ 190) نقلاً عن سقوط غرناطة ص 33.

أولاً: ترجمة ابن الأحمر:

هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين بن نصر بن قيس الخنزرجي. يرجع في نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، وكان نقيباً شهد العقبة وبدوأ⁽¹⁾.

ولد محمد بن يوسف في مدينة أَرْجُونَة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة 591هـ (1195م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة دعا للم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة 26 رمضان سنة 635هـ⁽²⁾.

أ- شيء من سيرته:

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شؤون مملكته، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم، فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل والملبس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس⁽³⁾. يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: «كان هذا السلطان آية في السداجة والسلامة، عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً التقشف بعيداً من التصنع، شديد الحزم، فظاً في طلب حقه، مباشراً للحرب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر التبدي»⁽⁴⁾.

(1) انظر: التاريخ الأندلسي ص 517.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحان ص 31.

(4) ابن الخطيب: اللمعة البدرية ص 43.

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر إلى مخالفة أعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر.

من أعمال ابن الأحمر، إلى جانب بنائه القصر المشهور، أنه أنشأ مأوى للعميان ودار للعجزة، وبنى مستشفى كبيراً ونشر المدارس، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته مستتراً بعيداً عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك⁽¹⁾، وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع ترتفع إليه الظلمات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل إليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيلة⁽²⁾. كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة «فتوفر ماله، وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الأهراء، وملاً بطن الجبل المتصل بمعقله حبوباً مختلفة»⁽³⁾. ولما ابنتى قصر الحمراء جلب له المياه التي أوصلها كذلك إلى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومدّ إلى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزال بعضها قائماً حتى اليوم⁽⁴⁾.

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

1- موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال فكانت مملكة غرناطة

(1) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحات ص 32.

(2) ابن الخطيب: اللوحة البدرية ص 44.

(3) المصدر السابق ص 43.

(4) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري ص 32.

أبعد مكاناً بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

2- ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ما تملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

3- هجرت المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذاً يجمعون به ويلجئون إليه، فكثرت في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبيه وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها⁽¹⁾.

4- حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

5- براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر⁽²⁾.
وغير ذلك من الأسباب.

(1) انظر: التاريخ الأندلس ص 521، 522.

(2) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيلة ص 269.

ثانياً: جهاد المرينيين في الأندلس:

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبد الله الغالب بالله، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكاد شاعراً فقيهاً، حتى أنه دعي باسم «محمد الفقيه»، وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة الفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرت المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب (أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس مليئاً بدعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة 673هـ فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العز في صاحب سبته يأمره بعمارة الأجنان⁽¹⁾ الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في 17 ذي الحجة 673هـ فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح ما مرّ عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الأسبان أمام جيشه المظفر وجمع في طريقه غنائم ضخمة وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، وفرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصورة - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

(1) أي ببناء السفن.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبد الواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والافتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناته يستفزههم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز 674هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخييل العتاق، والعُدّة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوّعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يمجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات أثناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدهون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى غزو العداة وتجويز صباح مَسَا
 كأنها البحر أضحى للجياد مَدَى وكل عُشْبَة ماء حُوّلت فَرَسَا
 كأنما اقترب البرّان واتصلا فصار ذاك طريقاً للورى يَيْسَا⁽¹⁾

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخُدّام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس 21 صفر 674هـ وفي

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 43.

الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني اشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدمه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين اشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكثرث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف، ولم تستطب جفونه مناماً، ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدّمته وقدمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب، فتقدم والدّه بمرحلة، وسار أبو يوسف في أثر ابنه في جميع جيوشه، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الأاسبان، ووصل إلى حصن المفورة ما بين قرطبة واشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أجواز قرطبة ثم إلى إسته.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحريك حشود النصارى بقيادة «دونونة» في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم⁽¹⁾.

أ- مجلس الشورى الحربى:

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ قبائل مرين، وأمراء العرب، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء، ليشاورهم كيف يكون

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 45.

العمل في لقاء العدو المقبل إليهم وسمع أبو يوسف آراء الجميع، وأخذ أجودها، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو، والصبر والثبات عند اللقاء والتطلع إلى معية الله وما عنده من الأجر والثوبة للمجاهدين في سبيله وبينها هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بُعْد الرجال أمام الخيل ودونونه في وسط الجيش وكان ملك قشتالة حزمه بيده، وزوجه ابنته، وقوّضه على جيوشه وحروبه، وقوّض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده، وكان النصارى قد سعدوا به لأنه كان لم يهزم قط، وكان وبالاً ودماراً ومصيبة على بلاد الإسلام، شديد الانتقام، ولا يمل من القتل وسفك الدماء وسبي نساء المسلمين في كل الأوقات، فأقبل في كبرياءه وغروره تحت ضلال البنود وأصوات الأبواق تحفّق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا¹ الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

ب- ترتيب أبي يوسف لجيشه:

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى، ثم ترجّل عن جواده فأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة «اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوّها» فأجاب الله تعالى دعائه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال وجلاده، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته، ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين، وعصابة

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 46.

المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذائبون على حماه والمقاتلون عِداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدّوا في طلبها، وأبدلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، «وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» فاغتنموا هذه التجارة الربحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقاتل المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً ومن عاش منكم رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، «اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» «فلما سمعوا منه هذه المقالة، تآقت أنفسهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم»⁽¹⁾.

فالتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسم «دونونة» جيوشه إلى خمسة أجزاء، ليظهروا جمعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين، وحرابهم، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الأسبان، وقتل زعيم الأسبان «دونونة» كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه⁽²⁾.

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزلّاقة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحد

(1) انظر: التاريخ الأندلسي ص 538 نقلاً عن الذخيرة السنية ص 149-150.

(2) انظر: سقوط غرناطة ص 48.

وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً مظفراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة 674هـ بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم⁽¹⁾.

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الأسبان قرب إستاجة وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية:

1- الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجئه العدو ولذلك عقد لواء لابنه أبي يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على أثره.

2- إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا يتشغل بها المجاهدون وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم وبذلك تحاشى الخطأ الذي وقع فيه المسلمون في معركة بلاط الشهداء وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ واستخراج الدروس والعبر من صفحاته الماضية.

3- صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده والتي ألهم فيها الشاعر وحرك بواعث الفداء، ورغبتهم في الشهادة، فرفعت تلك الخطبة الصادقة معنويات جند المسلمين، فجاهدوا صابرين محتسين، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتيية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ومهتت في الحروب وخططها.

4- باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه، وقتل عدداً من الأسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحد، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين.

5- أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكسة إلى أعلى منار «القرويين» ومنار

(1) انظر: التاريخ الأندلسي ص 538.

جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم⁽¹⁾.

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً بهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن اشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني وفيه قصيدة من أبياتها:

| | |
|---|---|
| وَسَرَّتْ بِسَعْدِكُمُ النُّجُومُ الطُّلُوعُ | هَبَّتْ بِنَصْرِكُمُ الرِّيحُ الأَرَبُوعُ |
| حَتَّى أَضَاقَ بِهَا الفِضَاءُ الأَوْسَعُ | وَأَتَتْ لِنَصْرِكُمُ المَلَائِكُ سُبُوقاً |
| أَنَّ الأُمُورَ إِلَى مَرَادِكُ تَرْجَعُ ⁽²⁾ | وَاسْتَبَشَرَ الفَلَكُ الأَثِيرُ تَيْقُنًا |
| مَلَأَ البَسيطَةَ نُورَهُ المِشعِشعِ | وَأَمَدَكَ الرَّحْمَنُ بِالْفَتْحِ الَّذِي |
| نَفْسًا تُقَدِّمُهَا الخَلَائِقُ أَجْمَعُ | لِمَ لَآ؟ وَأَنْتَ بِذَلَّتْ فِي مَرْضَاتِهِ |
| بِعِزِّمَةِ كَالسَّيْفِ بَلْ هِيَ أَقْطَعُ | وَأَتَيْتِ نَصْرَ دِينِهِ مَتَوَكَّلًا |
| وَالأَرْضُ تُنَشِّرُ فِي يَدَيْكَ وَتُجْمَعُ | أَيَّنَ المَفْرُو لَآ فِرَارَ لَهَارِبِ |
| وَلَبِستَ مِنْهُ أَنْتَ مَا لَآ يُجْلَعُ | فَلَقَدْ كَسوتَ الدِّينَ عِزًّا شَاخِحًا |
| فإِلَيْكَ يَا يَعقُوبُ تَومِي الأَصْبَعُ ⁽³⁾ | إِنَّ قِيلَ مَنْ خَيْرُ المُلُوكِ بِأَسْرَهَا |

ت - الغزوة الثانية:

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة 677هـ / 1278م، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ودخل معهم في أحلاف ضرت بالمسلمين واضطر سلطان

(1) انظر: سقوط غرناطة ص 50.

(2) انظر: إن الأمور مرادها ومرجعها إلى الله تعالى.

(3) انظر: مصرع غرناطة ص 51.

المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة وعقد تحالفاً مع ملك قشتالة، فساروا إلى أقصى الجنوب لاحتلال «طريف» مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودهم من جديد⁽¹⁾، فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد الفقيه - في شعبان سنة 701هـ / أيار مايو 1302 بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة⁽²⁾.

ومما يذكر أن أبو يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة 678هـ - 1279م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مريين ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفر سنة 684هـ إلى الأندلس، وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفوض السلطان المريني على ما يراه ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس⁽³⁾.

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 53.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: التاريخ الأندلسي ص 540.

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685هـ / 1285م، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس. هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته:

كان رحمه الله صَوَّاماً قَوَّاماً، دائم الذكر، كثير الفكر، لا يزال في أكثر نهاره ذاكراً، وفي أكثر ليله قائماً يصلي، وسبحته في يده لا يزالها أكثر أوقاته مكرماً للصالحين، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين، متواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفاً في سفك الدماء، كريماً جواداً، وكان مظفراً منصوراً الراية، ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغز قط عدواً إلا قهره، ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمره، ولا قصد بلداً إلا فتحه⁽¹⁾.

ولا ننسى أنه كان خطيباً يؤثر في نفوس جنده، شجاعاً مقداماً يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة الله.

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين، وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدية⁽²⁾.

قال عنه ابن كثير في وفيات عام 685 هـ: (أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بنظام مراکش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة ثمان وستين وستمائة واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها)⁽³⁾.

ج - مشيخة الغزاة:

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 55.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) البداية والنهاية (13/ 327).

يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم، من مملكة قشتالة ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الاستعداد من اجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رئاسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة 693هـ فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء⁽¹⁾.

عن هذه المشيخة يذكر المقرئ في نفح الطيب أنه «لم يزل ملوك بن مرين يُعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة»⁽²⁾.

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة 701 هـ (1301م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع الذي خلع سنة 708 هـ ليتولى الحكم أخوه نصر وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام 708 هـ.

وكان مجبولاً على طلب الهدنة محبا للعلم وأهله يخطط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المرية، فهزم النصارى في المرية، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل

(1) انظر: التاريخ الأندلسي ص 540.

(2) نفح الطيب (385/4) نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 540.

طارق في أيديهم بعد حصارٍ طويلٍ مضمّنٍ دام حتى آخر سنة 709 هـ.

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاءٌ وعداءٌ بينه وبين بني مرين حكام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك التنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فنار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة 713 هـ ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف رأس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها⁽¹⁾.

(1) انظر: الأعلام للزركلي (8/ 28).

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، لكنهم نكلوا عن معاونتهم، بسبب سوء تصرفات سابقه ضدهم⁽¹⁾.

في أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة 716هـ واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون⁽²⁾.

وفي سنة تسع عشرة وسبعمئة ألب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرة، وكان وصيا على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استتصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي «البابا» في طليطلة⁽³⁾ وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي⁽⁴⁾.

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف، منهم ألف وخمس مئة فارس والباقي رجالة. لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء⁽⁵⁾.

(1) انظر: نهاية الأندلس ص 117.

(2) انظر: ابن جزى ومنهاجه في التفسير لعلي الزبيرى (1/56).

(3) نفس المصدر السابق.

(4) التاريخ الأندلسي ص 541-542.

(5) المصدر السابق ص 542.

وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة، لجأوا إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم، ففضى الله تعالى بهزيمة أمم النصرانية التي احتقرت جيش غرناطة حينما رأت التفاوت الكبير بين الجيشين، وكان نصراً عزيزاً، ويوما مشهوداً. زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى، والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه⁽¹⁾.

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فمما وصف به:

(كان حسن الخُلُق، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتاً في المواقف، عفيف الأزرار، ناشتاً في حجرة الطهارة بعيداً عن الصبوة، برياً من المعاقرة)⁽²⁾.

وفي سنة 724 هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه⁽³⁾.

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمئة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة وكانت من أعظم غزواته وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكلال بالنصر⁽⁴⁾.

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قُتل بباب قصره غيلة من قِبَل ابن عم له تربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحاً وتوفي على إثر ذلك في

(1) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (57/1).

(2) الإحاطة (377/1) برياً من المعاقرة أي بعيداً عن شرب الخمر.

(3) انظر: نهاية الأندلس ص 120.

(4) المصدر السابق نفسه.

اليوم التالي رحمه الله وتقبل شهادته⁽¹⁾.

وفي عام 733 هـ استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخليص جبل الفتح - أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام 709 هـ وكان للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدو المغربية⁽²⁾.

د - موقعة طريف:

وقد تحلّى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة 741 هـ من قبل النصارى.

منذ أن استعاد الأندلسيون سنة 733 هـ بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاما - إذ سقط في أيدي النصارى سنة 709 هـ توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يمدق بهم سارعوا إلى الاستنجاد بإخوتهم في الدين في العدو المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس «وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته 733-755 هـ)».

كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو

(1) المصدر السابق ص 121.

(2) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (1/59).

المملكة الإسلامية أطباع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلنا الجهاد، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأرجوان والبرتغال كونوا أسطولاً بحرياً متحداً ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافقت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس ف وقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هرباً بالسيوف، وطعنا بالرمح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة⁽¹⁾. ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدو إلى العدو. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففנית أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن

(1) انظر: ابن خلدون (7/ 261) نقلاً عن ابن جزى ومنهجه في التفسير (1/ 72).

طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة 741هـ وإلى أوائل شهر جمادي الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيتها كان وراء انكسار شوكتهم⁽¹⁾، وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تلخص فيما يأتي:

(ولما قرب معسكرهم سرب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصراري أكمنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مرادهم، وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً وليسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان مواكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بها وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم⁽²⁾).

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب⁽³⁾ يقول المقرري في وصف هذه الفاجعة:

«ففضى الله الذي لا مرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان

(1) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (1/73).

(2) انظر: العبر لابن خلدون (7/261-262) نقلاً عن ابن جزى (1/74).

(3) انظر: نهاية الأندلس ص128.

أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولثة وافرة من الأعلام.. واشرب العدو والكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريث، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء، التي تضعض لها ركن الدين بالمغرب، وقرت بذلك عيون الأعداء»⁽¹⁾.

ويرى الأستاذ نجيب زيب اللبناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى ويرى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى: (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب. وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخرب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيراً ما حث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرانيين للايقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة..⁽²⁾.

ولاشك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تدمر الأمم إذا لم يكن لها عمل مضاد ضد مخططات الأعداء بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بناءها.

(1) انظر: ابن الجزري ومنهجه في التفسير (74 / 1) نقلاً عن نفخ الطيب (6 / 317).

(2) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، الأستاذ نجيب زيب (3 / 81).

هـ- العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف:

1- أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.

2- القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المالقي، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، (كان حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء مجلاً لأهله مُطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صَوَّالة معروفاً بنصرة من أزر إليه. تقدم للمشيخة ببلده مالقة ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ثم وُلِّي القضاء بها فأعزَّ الحُطَّة وترك الهوادة ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقات حريصاً على الإفادة. ثم وُلِّي القضاء والخطابة بقرطبة»⁽¹⁾.

«وتصدَّر لبثَّ العلم بالحضارة يقري فنوناً منه جَمَّة فَنَفَع وَخَرَّجَ وَدَرَّسَ العربية والفقهاء والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمُّل وخفض الجناح...»⁽²⁾.

«واستمر على عمله من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فقد - رحمه الله - في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرى بطاهر طريف، شهيداً محرَّضاً يشحذ البصائر و (يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

3- أبو القاسم محمد بن جُزَيّ وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات. كان «فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقهاء وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب، ملوكي

(1) الإحاطة (2/176-177).

(2) نفس المصدر (2/177).

الخرزانة، حسن المجلس، تمتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته»⁽¹⁾.

«فقد وهو يمرض الناس ويشحد بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف..»⁽²⁾.

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذي كان همهم نصره دين الله والموت في سبيل الله تعالى.

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مدّ وجز، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسألة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة، أو أراجون حيناً آخر ثم ما لبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحققتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى وكان زمن سقوط دولة بني مرين 869هـ⁽³⁾.

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث أن ملك غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعى «ثريا» وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتيه الحسنة وكانت كثيرة الدهاء والأطع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى ولياً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة ولديها حتى أقنعتهم باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زُجَّت عائشة الحرة مع ولديها، وشدّد الحجر عليهم، وعمولوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

(1) نفع الطيب (5/514).

(2) نفس المصدر (5/514) نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 547.

(3) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (1/74).

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيده غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ.

وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سرّاً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكّنت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة 887هـ / 1482م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وأيزابيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم لهم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوثة الواقعة على نهر شنيل شمال الحامة وعلى مقربة منها وأن يرذاً معاً الأسبان في جمادي الأولى 887هـ / تموز «يوليه» 1482م.

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيّره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة 887هـ وعمره 25 سنة وأراد أن يحدو حدو عمه الزغل في الجهاد، ويأشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة 888هـ نيسان «ابريل» سنة 1483 إلا أنه وقع أسيراً في يد النصارى في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من

الداخل ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسرهِ واستغل
النصارى قلة خبرة أبي عبد الله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه
للحكم.

ولما تولى عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة
وبطولة هجمات النصارى إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدم أسلوب تقوية الفتن
الداخلية في غرناطة وفي أخرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله الصغير، بعد
أن وقَّعه على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته للملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق
في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير، وأخذ ييث أبو عبد الله الصغير
دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط
مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادى الأولى 891هـ / أيار مايو 1486م، وكان
موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.

فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى.

وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى ويتأيدهم له.

وأنه غدا آله في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الرابعة بيد
فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبد الله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق
لفرديناند ما أرادته وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات
سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبد الله
الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادى الثانية 892هـ / حزيران يونيه
1487م، وخاف الزغل أن يسير إلى أنجادهما من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي
عبد الله الصغير، فاستنجد بسُلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن

تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان 892هـ/ آب أغسطس 1478م ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوصان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصرارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتستحل حرمتهم، وتغزا أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان الممالك فرديناند إن لم يغيّر خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصرارى في بلاد المسلمين كعامله بالمثل استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغيّر خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: «أنها - فرديناند وزوجه إيزابيلا - لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنها لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاؤوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية»⁽¹⁾.

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً، لأن الإسلام لا يميز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام 895هـ/ 1890م واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها:

1- أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

(1) نهاية الأندلس وتاريخ المتصرين ص 369.

2- تخفف عنهم أعباء الضرائب.

3- ألا يولى عليهم يهودي.

4- ألا يدخل نصراني في «الجماعة الإسلامية»

5- وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا إن النصارى لا يلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تقعد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي⁽¹⁾.

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبد الله الزغل للملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى⁽²⁾.

في سنة 895هـ/ 1890م، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه إيزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير، فثارت نفس أبي عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في مخالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين 50-80 ألفاً، مع مدافع وعُدَد ضخمة، وذخائر وأقوات،

(1) انظر: مصرع غرناطة ص (72، 73، 74، 75، 76، 77).

(2) انظر: مصرع غرناطة ص 77.

وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في 12 جماد الثانية سنة 896هـ/ سنة 1491م، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها.

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وافسدوا عليه خططه وتدبيره.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسان والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين)⁽¹⁾.

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضون، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار، وتولى زعماء القصبية والحمراء حماية الحصون.

وحل الشتاء، وقلت المؤن، والذخائر ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة «أبو القاسم عبد الملك» مجلس أبي عبد الله الصغير، وقال: إن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دبَّ إلى قلوب الجند والعامّة، والدفاع عبث لا يجدي.

ولكن موسى بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان «لم يبقى لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن»⁽²⁾.

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقويم الموقف

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 81.

(2) انظر: المصدر السابق ص 82.

في بهو الحمراء، فأقر الملاً التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: «لم تنضب كل مواردنا بعد... ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخيري أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها..»⁽¹⁾.

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناس انهزموا في داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك⁽²⁾ جاء في نفع الطيب: «وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على احد منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغضبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل وأن يفتك جميع من أسرى في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه للملكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه للملكه، ومن أراد الجواز للعدوة ولا يُمنع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم من الكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصّر من المسلمين يُوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما

(1) انظر: المصدر السابق ص 82، 83.

(2) انظر: سقوط غرناطة ص 83.

سلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثه، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن⁽¹⁾.

ولا يمنع مؤذن ولا مُصَلِّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقرري بعد هذا: «وأمثال هذا مما تركنا ذكره» من الشروط⁽²⁾.

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان: (وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلننا في يوم 29 تشرين الثاني «نوفمبر» مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاؤوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن الإيمان واليهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابه نُقِضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور⁽³⁾، وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليقعوا على قرار التسليم وقال: «اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم نُحَلِّق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني

(1) المدجنون هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الأسيان.

(2) نفع الطيب (6/ 277/ 278) نقلاً عن سقوط غرناطة ص 83.

(3) نقلاً عن مصرع غرناطة ص 85.

لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولأن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاتة، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشرف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها⁽¹⁾.

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء، واليأس مائل في الوجوه، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير: «الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي»⁽²⁾، وصاح من حوله على: «الله أكبر ولا راد لقضاء الله» وقرروا جميعاً التسليم وأن شروط النصراري أفضل ما يمكن الحصول عليه.

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصراري سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق وهذا ما سوف نعاني من مصائب الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه»⁽³⁾، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنا لن أقرّ وثيقةً فرضت وأخضع للعِدا
ما كان عذري إن جئنت وخفت أسباب الردى

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 86.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

والموت حقُّ في الرقاب أطال أم قصر المدى
إني رسمت نهايتي بيدي ولن أترددا
كنت الحسام لأمتي واليوم للوطن الفدى
أنا لن أعيش العمر عبداً بل سأقضي سيدي⁽¹⁾

ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول 897 هـ كانون الثاني (يناير) سنة 1492م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الأسبان القشتاليون من تل الرحي صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع «هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلها وزلات المسلمين»⁽²⁾.

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً ويجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله

(1) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر ص 65.

(2) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ص (124/3).

وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء⁽¹⁾ وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعا لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: «إيك مثل النساء مُلكا مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زيب عن هذه الكلمة: «ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسى وخشوعاً وتبهاً من عظمتها لأنها أصبحت كلمة تاريخية. لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة»⁽²⁾.

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع مجدأثوى وعاراً أقاما
هدني فوق خطبتنا أنك ابني يا لأمّ تسقي العذاب تواما
لم تصن كالرجال ملكاً فأمسي ركنه اندك فابكه كالأيامي⁽³⁾

يقول المؤرخ عنان: «وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجى قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية»⁽⁴⁾.

(1) نفس المصدر السابق (3/ 125).

(2) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 126، 127).

(3) انظر: سقوط الأندلس ص 70.

(4) نهاية الأندلس بتصرف ص 197 نقلاً عن سقوط الأندلس ص 69.

إن لبعض النساء مواقف مشرفة في تاريخ الأندلس الجهادي تصلح نبراساً لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وما قصة عائشة الحرة مع ابناها إلا واحدة منها⁽¹⁾.

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى الغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس⁽²⁾، مستجيراً بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العُقيلي، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها:

| | |
|-------------------------------|--------------------------------------|
| مولى الملوك ملوك العرب والعجم | رعياً لما مثله يُرعى من الدّم |
| بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن | جار الزمان عليه جَوْرَ منتقم |
| حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً | وأفزع الحظ ما يأتي على الرغم |
| حكم من الله حتى لا مردّ له | وهل مرد لحكم منه منحتم |
| وهي الليالي وقاك الله صوّلتها | تصول حتى على الآساد في الأجم |
| كنا ملوكنا في أرضنا دول | نمنا بها تحت أفنان من النعم |
| فأيقظتنا سهامٌ للردى صعب | يرمي بأفجع حتف من بهنّ رُمي |
| فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا | وأى ملك بظلّ الملك لم ينم |
| يبكي عليه الذي قد كان يعرضه | بأدمع مزجت أمواها بدم ⁽³⁾ |

ومرت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً في نفوس المسلمين، وأسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المتنصرين «أو الموريسكين» لم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

(1) انظر: سقوط الأندلس ص 70.

(2) نفع الطيب (6/ 278) نقلاً عن سقوط غرناطة ص 96.

(3) انظر: نفع الطيب (6/ 618 إلى 288).

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردينال «كمينس» على ذلك، فأمر بجمع كل ما استطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداسا في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها⁽¹⁾، لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في أسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور وإن للإسلام جولة وصوله من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، «ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً».

رابعاً: محاكم التفتيش:

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن الجهود التي قطعت للمسلمين لتحويل دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على سياسة أسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الأسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يولية) 1501 أصدر الملك الكاثوليكيان أمراً خلاصته «إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال».

(1) انظر: سقوط غرناطة ص 98.

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب، إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفع وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، تمزيق الأرجل وفسخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه⁽¹⁾.

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحرار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكين حفلات الإحراق⁽²⁾.

ومما يذكر.. أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كذب كأنها هي جنيّة لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تموت جوعاً ورعباً⁽³⁾.

«لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في

(1) انظر: محاكم التفتيش ص 91 نقلاً عن سقوط غرناطة ص 100.

(2) انظر: سقوط غرناطة ص 100.

(3) انظر: محاكم التفتيش ص 93 نقلاً عن سقوط غرناطة ص 109.

قلبه، وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعدورين، لم يقدرُوا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل نارا، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرُونَ على منعهم ولا على نهيهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيرة ما أمرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها»⁽¹⁾.

«وانطقاً من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، وليتتحب المتحبون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً»⁽²⁾.

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

فإذا علم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكّون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته⁽³⁾.

(1) انظر: نهاية الأندلس ص 321 نقلاً عن سقوط الأندلس ص 72.

(2) انظر: سقوط الأندلس ص 72.

(3) انظر: سقوط الأندلس ص 10.

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يميز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب «الأوتودافي» وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتھان بعض المھن الخاصة⁽¹⁾.

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرههم بكل وسيلة وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعاً لها ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة. وكانوا يشعرون دائماً بالخرج من الدين

(1) انظر: ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى لمحمد عبد الله عنان ص 24/32 نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (222/3).

الجديد فإذا ذهبوا إلى القُداس في أيام الأحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم وفي أيام الأحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عُمِدوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سرّاً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية⁽¹⁾. وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعدار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم⁽²⁾.

خامساً: فتاوى هامة:

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاكمة وكان تاريخ هذه الرسالة سنة 910هـ/ 28 نوفمبر 1504م.

وهذا نص الفتاوى:

«الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً»

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا

(1) أي الأحكام الإسلامية.

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 223).

في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كتابه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد ابن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغريبتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، أمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطوبيتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاك الله بين الغافلين كالحي بين الموتى فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وإن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإياء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيم به، فاقصدوا بالإياء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله ﷺ فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن

زوجوكم بناتهم فجايز لكونهم أهل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدُّ، فاشتموا مُمَدُّاً، ناوين انه الشيطان أو مُمَدُّ اليهود فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الشناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يدل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام

ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره
«يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى»⁽¹⁾.

سادساً: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية:

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديون المقدس أن يأخذ بها المسلمون المنتصرين في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة⁽²⁾.

- (1) هذه الفتاوى عشر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان برومه. انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (1/ 225).
- (2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 226).

«يعتبر الموريسكي⁽¹⁾، أو العربي المنتصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً. أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول انه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بإيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة. بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية.

أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية. أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس يديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنها في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعناً إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول إن الكعبة أول معابد الله أو يقول انه لم يُنصر إيماناً بالدين المقدس. أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين..»⁽²⁾.

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في

(1) الموريسكي يطلق على المسلم الذي اكره على الدخول في النصرانية.

(2) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (3/226،227).

الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل، والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفتيش قروناً عدة وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة 1818م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان «الجزويت» أصحاب المحاكم الملقاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمّل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل الماريشال «سولت» الحاكم العسكري الفرنسي لمريد الكولونيل «ليمونكي» مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل «ليمونكي» فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطه، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي⁽¹⁾.

إذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحكمة وأمام ذلك العمود عرش «الدينونة» كما يسمونه، وهو عبارة عن «دكة» عالية يجلس عليها رئيس الديوان⁽²⁾، وإلى جانبه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس

(1) انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام لمحمد الغزالي نقلاً عن مصرع غرناطة.

(2) رئيس ديوان محكمة التفتيش.

جماعة القضاة ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقرز ما حبيت رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الأفقية ممدأ بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتخطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة ما لاقى من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيماً من النساء السجينات.

وانقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدؤن بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدرج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المُعذَّب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يجملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت¹¹².

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 112.

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزَّق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسلس اللسان، ولتمزيق أئداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعذِّبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُنَّ جنونهم وانطلقوا - كمن به مس - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدقت عظامه دقاً، وسحقها سحقاً. وأمسكوا أمين سره، وزفوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليها الأبواب، فمزقته السكاكين شر ممزق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصاة وبقية الرهبان كذلك⁽¹⁾.

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعوا من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً:

1- تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 93.

2- سعى ممالك إسبانيا نحو الإتحاد وتمّ ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندوا) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون، وإيزابيلا التي تبوّأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس⁽¹⁾.

3- الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات)⁽²⁾.

أما شوقي أبو خليل فيقول: «والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرّسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا التهتك، والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب والآلئ.

لقد ديسست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمر والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله في الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله ل حرب أو جهاد، أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفاء للحرب والمصاولة»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: مصرع غرناطة ص 94.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه.

لقد تنافس الولاة والحكام في الجوارى حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود عام 635هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ⁽¹⁾، دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور «الله أكبر» وبقينا فيها زمنا، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قدم إليه خمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه»⁽²⁾.

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجبي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: (كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيح حياتهم»⁽³⁾.

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين

دَوَزِنِ الْعُودَ وَهَاتِ الْقَدْحَا رَاقِبِ الْخَمْرَةَ وَالْوَرْدُ صَحَا⁽⁴⁾

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم
حلل الحرير عليكم ألواناً

(1) انظر: سقوط الأندلس ص 29.

(2) المصدر السابق ص 27.

(3) انظر: التاريخ الأندلسي ص 211.

(4) انظر: النصر والهزيمة لشوقي أبو خليل ص 123.

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا⁽¹⁾

4- الاختلاف والتفرق بين المسلمين، ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبد الواد والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيماً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميمة منذ ملوك الطوائف بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبددٌ فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في دينكم وتركتموه للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد⁽²⁾

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال ﷺ في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفي رواية «فأهلكوا»⁽³⁾.

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: «فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف»⁽⁴⁾.

(1) انظر: فقه التمكن عند دولة المرابطين، لعلي محمد محمد الصلابي ص 90.

(2) انظر: سقوط الأندلس ص 33.

(3) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9/101، 102).

(4) المصدر السابق (9/102).

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف⁽¹⁾.

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والاتلاف ونهانا على التفرق والاختلاف»⁽²⁾.

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يبطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً⁽³⁾.

«وإنما كان الاختلاف علّة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقا شتى مما يضعف الأمة لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسح شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها»⁽⁴⁾.

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقى الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها وإن أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: «والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: مجموع الفتاوى (116/19).

(3) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان ص 139.

(4) انظر: السنن الإلهية ص 139.

الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ما تبثلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقا شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس وتجعل المعرضين يفتنون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تحالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها وانثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول⁽¹⁾.

5- موالة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهية واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبعض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من

(1) السنن الإلهية ص 140، 141.

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين»⁽¹⁾.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم... ﴾⁽³⁾.

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء فقال: «أوثق عرى الإيمان المولاة في الله والمعادة في الله، والحب في الله والبغض في الله»⁽⁴⁾.

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه - عزّ وجلّ: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)⁽⁵⁾. فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفة، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة وللإسلام وأهله ولكنك لا تجني من الشوك إلا العنب.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم!!⁽⁶⁾.

(1) سورة المائدة: الآية 51.

(2) سورة المائدة: الآية 57.

(3) سورة المجادلة: الآية 22.

(4) أخرجه أحمد في مسنده (4/286).

(5) البخاري مع الفتح، كتاب الرقائق رقم 6501.

(6) سقوط الأندلس ص 24.

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الأسيبان يعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح. ولما سقطت مالقة وحوّل مسجدها الأعظم إلى كنيسة ردّه الله إلى أصله، أرسل أبو عبد الله الصغير إلى ملك النصارى يهنئه في ذلك، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمّه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناءً يذكر!:

وهل شكر النصارى لهذا، المتخاذل خذلانه لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقرئ - رحمه الله - : (ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس - حرسها الله - وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل، المانح المانع لا إله إلا هو)⁽¹⁾.

6- التخاذل عن نصره من يحتاج إلى نصره:

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)⁽²⁾.

وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»⁽³⁾.

لقد تحاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصره ما تبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم وأنتهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

(1) انظر: سقوط الأندلس (67،68).

(2) البخاري مع الفتح، كتاب المظالم، رقم 2442 (5/116).

(3) المصدر السابق، كتاب المظالم، رقم 2446، (5/117).

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصره من يستحق النصر وإليك ما حدث في طليطلة.

قال د. عبد الرحمن الحججي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

(قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفضس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا همّ له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكان الأندلس وجدت لمنفعته وليترجع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد)⁽¹⁾.

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي 627-655هـ كان وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً تقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرض نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك من أجل سحقه ومحيه من الوجود.

يقول المقرئ في نفع الطيب واصفاً استعداد النصارى لإحدى المعارك: «وجاء الطاغية دون بطيء في الجيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك»⁽²⁾.

ويقول جوستاف لوبون في (حضارة العرب) إن الراهب بليداً أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من 140 ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية⁽³⁾.

(1) انظر: التاريخ الأندلسي ص 332.

(2) نفع الطيب (1/449، 450) نقلاً عن سقوط الأندلس ص 45.

(3) انظر: عوامل النصر والهزيمة ص 121.

وكانت نتيجة تحاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة فأهلك عليه أسى ولا تتجلد
أسفاً عليها أفقرت صلواتها من قاتنين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة فكلاهما يبغى الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشرٍ معقولةٍ فيهم تود لو أنها في ملخد
كم من تقيٍّ بالسلاسل موثق بيكي لآخر في الكبول مقيد
ضجّت ملائكة السماء لحالم ويكى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا بما دهانا من ردى أو من ردى¹
أفلا تراعون الأذمة بيننا من حرمةٍ ومحبةٍ وتوددٍ
أكذا يعيث الروم في إخوانكم وسيوفكم للثأر تتقلد
يا حسرتي لحمية الإسلام قد خدت وكانت قبل ذلك توقد²

7- غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم³.

قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾⁴.

(1) انظر: سقوط الأندلس ص 46.

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 63).

(3) سقوط الأندلس ص 40.

(4) سورة المائدة: الآية 14.

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخ ملئ بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾⁽²⁾.

لقد استمات النصارى في حروبهم للمسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

8- إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لاشك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على اثر ذلك عهد السنوات الصعاب كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحد وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد⁽³⁾

(1) سورة التوبة: الآية 10.

(2) سورة البقرة: الآية 120.

(3) سقوط الأندلس ص 31.

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، وسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: (والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..)⁽¹⁾.

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام «وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُّلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسؤولون على النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته»⁽²⁾.

9- عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدي أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: «فرغ صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصله ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسعاً واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعتة ويستقل طلعتة وما كان أظن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تشوب، ومذنباً

(1) مجموع رسائل ابن حزم (3/176).

(2) التاريخ الأندلسي ص 325.

يتوب»⁽¹⁾.

«إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبه المقدس وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغ⁽²⁾ة بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها» وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم - رحمه الله -: «ولا يغرنك الفساق والمتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضآن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»⁽³⁾.

10- الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

«ففي عام 643هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤي له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه!! فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلّم ابن الأحمر جيان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ، والحجاز وقلعة جابر للنصارى»⁽⁴⁾.

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادي الأولى عام 645هـ قدم ابن الأحمر قوة من

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني ص 95، 96.

(2) سقوط الأندلس ص 35.

(3) مجموع رسائل ابن حزم (3/ 173).

(4) نهاية الأندلس ص 43 نقلاً عن سقوط الأندلس ص 22.

الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن يتجوا بأنفسهم وأموالهم وفي أوائل رمضان 646هـ دخل فرناندوا الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة⁽¹⁾. ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال:

حشوا رواحلكم يا أهل أندلس فيما المقام بها إلا من الغلظ
السلك يُنشر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة مشوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف النجاة مع الحيات في سقط⁽²⁾

11- سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس، منها تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأمين، وتأمين الخوّن، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها، إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتور الحججي: (ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها

(1) انظر: سقوط الأندلس ص 22.

(2) نفع الطيب (4/ 352) نقلاً عن سقوط الأندلس ص 49.

بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاءً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر⁽¹⁾. وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام 635هـ وعام 893هـ من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدم عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين ولذلك غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادئ والمثل والقيم⁽²⁾.

12- الثورات الداخلية في الأندلس: وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحتيتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبة في إفريقية ولما يش من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يطنه من النصرانية عام 899م واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية وأعلن عدائه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد

(1) التاريخ الأندلسي ص 368.

(2) انظر: سقوط الأندلس ص 51.

الرحمن الثالث - الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم «نصف قرن»، فكانت أول مدينة استسلمت له استجه ثم لحقت بها مدينة البيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت «ارخدونة» أن تدفع الجزية، ورضخت اشيلية لقوات عبد الرحمن في 913م وأخضع «ريه» التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عداية ضد الإسلام في الأندلس 37 عاماً، وحاصر طليطلة سنة 932م واستسلمت له، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلمون ولا يملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام، والدولة العبيدية الراضية في إفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس، وأرسلت الدعاة وأسسوا حزباً عبيدياً رافضياً في الأندلس وتسترأ بالطرق الصوفية وقاومهم عبد الرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن الله في خلقه شؤون⁽¹⁾.

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترأ بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها.

ولقد اكتشف مخبرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس

(1) انظر: ابن عذارى (47/1) نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/262) إلى

والمغرب لصالح ملوك النصارى، فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء فأفتوا بوجود هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كان بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارى فأعمل في بعضهم السيف ونفى من تبقى منهم إلى المغرب، لقد أثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالي وغيرهم من ملوك القوط ولم تعطي مخبرات دولة المرابطين أدنى فرصة لهؤلاء المندسين⁽¹⁾.

ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس:

إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وذنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

1- وإن الفتن تظل تترى وتتوالى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم.

2- قال تعالى: ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم ﴾⁽²⁾.

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/346). لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الأندلس، سقوط الأندلس، د. ناصر العمري، مصرع غرناطة، = شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة، شوقي أبو خليل، السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحججي وغيرها من الكتب.

(2) سورة النور: الآية 63.

3- لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن بحسب كل صيحة عليه يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه وأصبح في ضنك من العيش ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً﴾ (طه:24).

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبليد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه وأصابهم ما أصاب بنو إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾⁽¹⁾، فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله ﷺ: (كلا والله لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم)⁽²⁾.

3- أن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته

(1) سورة المائدة: الآيات 78-79.

(2) أبو داود، كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف رقم 4670.

أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾⁽¹⁾.

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذلل وتمهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من اتباعهم إلا ما رحم الله وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق وفضحهم الله بذلك وحرموا التوفيق والرجوع للصواب وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله.

4- لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض وتعطلت أحكام الله فيما بينهم ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزول عنهم حتى بعد زوالهم.

5- وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم وبعض المدن تبتل بالجوع بسبب حصار النصارى لهم وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

(1) سورة الرعد، الآية 11.

6- إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلب الكفار وتوالي المصائب.

7- أن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ إنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين في زمن المرابطين والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمرء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين.

8- إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

• معاندة الرسل والكفر بها جاءوا به.

• كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومجاعة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمرائهم وأتقنوه اتقاناً عجيباً.

يقول الشاعر البسطي الأندلسي:

هذا جزاء مخالف مثلي أبي تقوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر:

سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس وجهاً للقياء الله غير مسوّد

من ذا يتوب لربه من ذنبه أو يقتدي بنبيه أو يهتدي⁽¹⁾

وكان من إجابة المتوكل بن الأفسس لأوفونس ملك النصارى:

«أما تعيرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت
كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذناك»⁽²⁾.

(1) انظر: سقوط الأندلس ص 61.

(2) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحججي، ص 337 نقلاً عن الحلل الموسية في ذكر الأخبار
المراكشية ص 20-23 كذلك الطوائف، محمد عبد الله غسان، ص 90-91.

المبحث الثاني

أولاً: دولة بني مرين في المغرب الأقصى

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحيدين عام 668هـ / 1269م وهم يتفرعون من قبائل (زناتة)، مثل (مغراوة) وبني (يفرن)، وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقوى وبسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومنتية المنحرفة ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة.

أولاً - عبد الحق بن محيو المريني

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقوى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة، والتزم بالذهب المالكي في سيرته⁽¹⁾ وقد مات عبد الحق عام سنة 614هـ فخلفه بعده أبنائه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة (642هـ)، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة (656هـ)، ويعقوب ابن عبد الحق، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحيدين وصار أمير المغرب سنة 668هـ (1269م) وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس⁽²⁾.

ثانياً - المنهج الذي قامت عليه الدولة:

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 55).

(2) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (2/ 200).

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصارهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين⁽¹⁾ أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية وبأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس إلا إن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم وبذلك حققوا مكاسب متعددة، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوي في النزاع⁽²⁾ وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير تحالف بني زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام 640هـ / 1243م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص⁽³⁾.

(1) من أمثال عبد الفتاح الغنيمي، والدكتور احمد مختار العبادي.

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 207).

(3) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 207).

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة، فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس وضم إقليم سلجاسة للدولة في صفر 673هـ / 1274م، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة. وفي عام 674هـ / 1275م أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم⁽¹⁾.

ثالثاً - حركة التوحيد للشمال الأفريقي:

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الأفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني (731 / 1331-752هـ / 1351م) وولده أبي عنان فارس (752 / 1351 -) أن يوحدوا الشمال الأفريقي بالقوة وعادت وحدة الشمال الأفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في

(1) انظر: المصدر السابق (3/ 219، 220، 221).

سنة 737 / 1337م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس وعاد حركة التوسع في الشمال الأفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس ودخل تونس في عام 748هـ / 1347م، لتمتد مملكته من مسراته في ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس.

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة في سنة 752 / 1351، ثم مات بعد شهرين.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الأفريقي وأزال دولة بني زيان سنة 753هـ / 1352م وتابع سيره إلى أفريقية ودخل تونس في سنة 758هـ / 1357م إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصا في فاس وطمع بعض أقربائه في السلطة جعله، يعود إلى عاصمته، فوفاه الأجل في العام التالي⁽¹⁾.

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من اجل توحيد الشمال الأفريقي وتقلص النفوذ المريني في المغربيين الأوسط والأدنى ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم.

وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ففقدوا المغربيين الأدنى والأوسط، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة سنة 818هـ / 1415م، فكان هذا بداية لانحيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيله ص141.

جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة 869هـ / 1464م واقتصرت الدولة المرينية على فاس⁽¹⁾.

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية وفي عهد آخر سلاطين بن مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (823-869هـ / 1320-1465م) قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (869هـ / 1465م) وبذلك انتهت دولة بني مرين⁽²⁾.

رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين:

- 1- دسائس ملوك الأسيان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.
- 2- دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات، المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات، وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الأفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.
- 3- ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شؤونها، وتنازعت الأهواء والمصالح، فتولدت انفجارات

(1) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر ص 142.

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/336،337).

داخلية ونزاع بين الأبناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

4- المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام 818هـ / 1415م، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار⁽¹⁾.

5- تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك سبب في قيام الشعب بشورة ضد دولة بني مرين وإزالتها من الوجود.

6- أجل الله في هذه الدولة، لأن الدول لها آجال لا تتعدها.

وغير ذلك من الأسباب.

خامساً: الدولة الوطاسية:

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية وأنزل بهم السلطان عبد الحق آخر سلطان الدولة المرينية نكبة عظيمة ونكل بهم أشد تنكيل واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه.

وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام 868هـ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام 877هـ / 1472م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من

(1) تاريخ المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر المجموعة من الباحثين ص 142.

يده حيث استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس، فأرسلوا 477 سفينة محملة بـ (30 ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال الفونس الخامس ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطاسيون عن أراضي من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته⁽¹⁾.

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصرارى أن يتوسعوا للاستيلاء على موانئ المغرب مثل سبتة وطنجة وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوئهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين (1492م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب، واستمر النفوذ الأسباني والبرتغالي في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الاستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وكانت هذه الموانئ والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والاسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطا للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية، لكنها رفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية، وتدرجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ود الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حربا جهادية ضد النصرارى الأسبان والبرتغاليين

(1) انظر: موسوعة المغرب (3/ 23، 24).

وحرّروا الأراضي المحتلة وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام 956هـ.

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فرّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين في فاس عام 961هـ وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد واسقط الدولة الوطاسية في نفس العام 961 هـ⁽¹⁾.

سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية:

1- دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الأسبان والبرتغاليين من اجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

2- عجزهم عن الوقوف بجانب المسلمين الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

3- ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها. وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

4- الضعف الاقتصادي الذي أصب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانئ.

5- التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة، بين المغاربة.

سابعاً: السعديون:

يرجع أصل السعديين من الجزيرة العربية ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي بن

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 53).

أبي طالب رضي الله عنه⁽¹⁾ ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرفجف بها خُصومُها من الطعن في نسبها⁽²⁾. وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة، أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعديين، يرى الأستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليلة السعدية ظئر⁽³⁾ رسول الله ﷺ.

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك أن الناس سعدوا بهم⁽⁴⁾ ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: «وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عن الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف»⁽⁵⁾. أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم⁽⁶⁾.

كانت بواعت الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد

(1) انظر: وادي المخازن لشوقي أبي خليل ص 31.

(2) قادة فتح بلاد المغرب (2/ 202).

(3) ضئر: المرضعة والعاطفة على غير ولدها.

(4) انظر: وادي المجازن لشوقي أبي خليل ص 32.

(5) المصدر السابق ص 32 نقلاً عن الاستقصاء (5/ 6).

(6) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 114، 115).

ودحر المعتدين ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الأسبان والبرتغال، فارشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وكان مقيماً في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبياعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووقفه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضي المغرب، وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة، وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة 923هـ وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد الأعرج أكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (930هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة (940هـ) اتفق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون نصيب الاشراف السعديين من (تادله)⁽¹⁾ إلى (السوس)، وللوطاسيين من (تادلة) إلى المغرب الأوسط.

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ الأخ الأصغر الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (961هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة (964هـ) وتولى زمام الأمور من بعده ابنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة (981هـ)⁽²⁾ فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً، قتل اثنين من إخوته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر، فكرهته الرعية⁽³⁾ وصفه السلاوي بقوله: (وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبراً تياًها غير مبال بأحد، ولا متوقف في الدماء، عسوفاً على الرعية، ومن شعره قوله:

(1) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (2/ 204).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: وادي المخازن ص 23.

فَقُمْنَا بِمَا نَصْطَبِحُ صَهْبَاءَ صَافِيَةً فِي وَجْهِهَا عَسْجَدٌ فِي وَجْهِهِ نُقْطٌ
وَانْهَضْ إِلَيْهَا عَلَى رَغَمِ الْعِدَا قَلْقَاءً فَإِنْ تَأْخِيرَ أَوْقَاتِ الصُّبَا غَلَطٌ
وَمِنْ شَعْرِهِ أَيْضًا:

سَارُوا فَسَارَ فُؤَادِي إِثْرَ ظَعْنِهِمْ وَخَلَّفُونِي نَحِيلَ الْجِسْمِ حَيْرَانَا
لَا أَفْتَرُ نَغْرَ الثَّرَى مِنْ بَعْدِ بَيِّنِهِمْ وَلَا سَقَى هَاطِلٌ وَرَدًّا وَرِيحَانَا⁽¹⁾

إلا إن هذا المتعجرف السَّفَاك للدماء لم يهنا بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك، وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الأسبان، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمداه بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم⁽²⁾.

وما أن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله واستطاع عبد الملك أن يستلم القواد والوزراء فانقادوا إليه جميعاً وباع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة (983).

ثامناً: من إصلاحات عبد الملك وأعماله:

1- أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

(1) الاستقصاء (58/5) نقلاً عن وادي المخازن ص34.

(2) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (2/204).

2- اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

3- أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجنديّة العثمانيّة وتشبه بهم في التسليح والرتب.

4- استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

5- فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوروبيين، احتراموه وأجلّوه. قال الشاعر الفرنسي أكبرياً دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة: «كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانيّة والإيطاليّة والأرمنيّة والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللّغة العربيّة، وباختصار، فإنّ معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنّسبة لنبيّل، فأحرى للملك»⁽¹⁾.

6- اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمر الدولة الداخليّة، وأحوال السكّان عامّة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدّولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربيّة وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة⁽²⁾.

تاسعاً: معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك

(1) انظر: وادي المخازن ص 37.

(2) المصدر السابق ص 39، 40.

انتصاراهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: 30 جمادى الثانية 986هـ الموافق: 4 آب (أغسطس) 1578م.

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها:

1- أراد البرتغاليون أن يمحووا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب (1521-1557م).

2- أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان ابن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي يدفعه في ذلك حقه على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، خطط لغزو واحتلال المغرب¹.

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى الوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عميه عبد الملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له على موانئ وشواطئ المغرب «فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك»².

(1) انظر: وادي المخازن ص 45، 46.

(2) انظر: الاستقصاء (69/5) نقلاً عن وادي المخازن ص 46.

1- حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحدد من النصارى عشرات الألوف من الأسبان والبرتغاليين والطلّيان والألمان و جهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، و جهز ألف مركب لتحمّل هؤلاء الجنود نحو المغرب⁽¹⁾.

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة واصيلاً في عام 1578.

2- الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: «أن أقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله».

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم فكتب إلى أهل المغرب ما استصرخت بالنصارى⁽²⁾ حتى عدت النصر من المسلمين، وقد قال العلماء: «إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه، وتهتدهم قائلاً: ﴿فإن لم تفعلوا، فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾⁽³⁾.

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته، برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: (الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرّضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصره، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحّته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصّالحاء والأجناد من أهل المغرب.

(1) انظر: وادي المخازن ص 49.

(2) سمي النصارى أهل العدو واستنكف عن تسميتهم نصارى.

(3) سورة البقرة، آية 279، انظر: وادي المخازن ص 51.

لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب...

وأما قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدو واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدت النصر من المسلمين ففيه محذوران يحضر عندهم غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: إنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال عليه الصلاة والسلام: إني لا أستعين بمشرك.. الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله..

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: ﴿وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين..﴾⁽¹⁾.

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾⁽²⁾. ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطؤوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف القاسمي بثبيت الناس.

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: (إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدو، فإن ثبت إلى أن تقدم عليك، فأنت نصراني

(1) سورة العنكبوت: الآية 110.

(2) الاستقصا (79/5) نقلاً عن وادي المخازن ص 53.

حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب)⁽¹⁾. فليس من الشجاعة، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر⁽²⁾.

وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وماحوها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

3- قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي):

■ الجيش البرتغالي:

125.000، وما يلزمهم من المعدات، والرواية الأوربية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن 14.000 راجل، و2000 فارس، و36 مدفعاً، مقابل: 50.000 راجل في الجيش المغربي، و22.000 1.500 من الرماة، و20 مدفعاً.

ذكر أبو القاضي في (المنتقى المقصور: عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً)⁽³⁾.

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن):

أن مجموعهم كان مئة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل⁽⁴⁾.

(1) انظر: وادي المخازن ص 53.

(2) انظر: وادي المخازن ص 54.

(3) انظر: الاستقصا (69 / 5) نقلاً عن وادي المخازن ص 56.

(4) انظر: الاستقصا (69 / 5) نقلاً عن وادي المخازن ص 56.

كان مع الجيش البرتغالي: 20.000 إسباني، 3000 ألماني، 7000 إيطالي.... وغيرهم عدد كبير... مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً... وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان.

وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين: 300-600 رجل على الأكثر⁽¹⁾.

■ الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعدادة 40.000 مجاهد، يملكون تفوقاً في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

1- ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

2- التفاف الشعب حول القيادة، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لثن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعفَّ عنها، ولم يأخذ منها شيئاً⁽²⁾.

(1) انظر: وادي المخازن ص 56.

(2) انظر: وادي المخازن ص 58.

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي.

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوّه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطّة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها»⁽¹⁾.

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف للرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتتقّص في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر⁽²⁾.

كان صباح الاثنين 30 جمادى الآخرة 986هـ / 1578م يوماً مشهود في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام. وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مذكراً بوعده الله للصادقين المجاهدين بالنصر⁽³⁾ «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» (الحج، آية: 40).

«وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم» (الأنفال، آية: 10).

كما ذكر بوجوب الثبات:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار» (الأنفال، آية: 15).

(1) المصدر السابق ص 62.

(2) انظر: وادي المخازن ص.

(3) المصدر السابق ص 62.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾
(الأنفال: آية: 45).

وبضرورة الانتظام:

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (الصف،
آية: 4).

وذكر أيضاً حقيقة لا مرأى فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام
بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتقت النفوس للشهادة⁽¹⁾.

ولم يأل القسسُّ والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم
سبستيان، مذكرين أن البابا أحلَّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه
الحروب التي أتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهّد
الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل
خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة القدى، لقد رفض أن يتخلف
عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا
القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبائبه على
فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد

(1) انظر: وادي المخازن ص 64.

بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العليج، وصار حاجبه يقول للجند: (السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر)⁽¹⁾.

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدّم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصراري، وصدّم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الإديبار قاصدين قنطرة نهر واد المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتقوا بالنهر، فغرق من غرق وأسّر من أسّر، وقتل من قتل، وضُرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين⁽²⁾.

جاء في (درة السُّلوك) لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة «مخطوطة بدار الوثائق بالرباط، د 428، ص 14»⁽³⁾.

وابن أخيه⁽⁴⁾ بالنصراري اعتصمًا
وصار يستنجدهم لمن سَمًا
أجابهُ اللعينُ بسبستيان⁽⁵⁾
بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوشِ الذي جمَعَا
ينيف عن مائة ألفٍ سُمِعَا

(1) الاستقصا (80/5) نقلاً عن وادي المخازن ص 66.

(2) انظر: وادي المخازن ص 66، 67.

(3) دعوة الحق السنة 19، العدد 8، رمضان 1398هـ، ص 56 نقلاً عن وادي المخازن ص 67.

(4) إشارة إلى المتوكل.

(5) سبستيان (لضرورة الوزن) وإلا فهو سبستيان.

فقيض الله له المنصور⁽¹⁾ ملكاً شجاعاً أسد هصوراً
فخلص الإسلام من يد اللعين
ما منهم إلا قتيل وأسير
مات بها بستيان اللعين
ثم محمد⁽²⁾ الذي أتى به
لحكمة الله العظيم القاهر
بذكر عمّه أبي العباس
نجل الرسول المصطفى المختار
ملكاً شجاعاً أسد هصوراً
بصره على لقاء المشركين
في ساعة من الزمان⁽³⁾ ذا شهر
فماله عن الردى معين
مات غريقاً⁽⁴⁾ يومه فانتبه
أفادهم وزين المنابر
الحازم الرأى شديد البأس
به زها المغرب على الأقطار⁽⁵⁾

عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن:

1- القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال، أبي علي القوري، والحسين العليج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

2- التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف

(1) أحمد المنصور، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه، وكان جديراً بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيا وخطط للمعركة.

(2) محمد المتوكل المسلوخ.

(3) إشارة إلى قصر مدة المعركة.

(4) في نهر وادي المخازن.

(5) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

3- رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضييد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الأندلس.

4- اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

5- الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

6- القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.

7- تفوق القوات المغربية بالخييل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المهزيمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.

8- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

9- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقدا⁽¹⁾.

10- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم.

(1) انظر: وادي المخازن ص 72، 73، 74، 75.

وغير ذلك من الأسباب.

الحادي عشر: نتائج المعركة:

1- أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين 30 جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسع مئة للهجرة.

2- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية، في زمن السلطان مراد خان الثالث، وإلى سائر عمالك الإسلام المجاورة للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنتين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

3- ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبا تخطب ودّها واضطر ملك البرتغال الجديد «الريكي» أن يرسل وفداً إلى المغرب وكذلك ملك الأسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة.

ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنته ومباركة ومعهم هدياهم الثمينة⁽¹⁾.

وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود (تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور)⁽²⁾.

4- سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

(1) انظر: وادي المخازن ص 70.

(2) الاستقصاء (92/5) نقلاً عن وادي المخازن ص 70.

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي - واصفاً نتائج المعركة:

«وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الاعصار، العصر، الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين - لقلت: هو العصر النحاس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والريح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب»⁽¹⁾.

5- مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد، عبد الملك المعتصم بالله.

6- سارع البرتغاليون النصارى بفكك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

7- سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

8- حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط - على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لئن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب⁽²⁾.

(1) الاستقصا (5/ 85-86) نقلاً عن وادي المخازن ص 71.

(2) انظر: وادي المخازن ص 76.

و- السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة 956هـ/ 1549م.

أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة⁽¹⁾. درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز: (فاس، ومراكش بتاروددانت.....).

ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقهاء والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير.

أ- من أشهر شيوخه:

1- أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.

2- شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

3- أبو زكريا يحيى السراج.

4- محمد بن يوسف الدرعي.

5- سليمان بن إبراهيم.

6- موسى الروداني⁽²⁾.

(1) انظر: وادي المخازن ص 37 نقلاً عن الاستقصا (5/ 136).

(2) انظر: وادي المخازن ص 38.

ب- من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

1- «المعارف في كل ما تحتاج الخلائق» يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الأسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الاستراتيجي القتالي.

2- مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: (نحن معاصر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)⁽¹⁾.

3- كتابات أدبية وشعرية متميزة، تظهر فيها المحسنات البديعية أحياناً⁽²⁾.

وصفه السلاوي فقال: (نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثاقفه⁽³⁾ لأهله عليه، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره⁽⁴⁾. كان طويل القامة ممتلئ الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلج⁽⁵⁾ براق الشنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المتزح، لطيف الشمائل)⁽⁶⁾.

ج- إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

(1) حاول أن يزيع بعض الإشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه.

(2) انظر: وادي المخازن ص 38.

(3) مثاقفه: ركب الإنسان وتدل على لزوم الشيء.

(4) أخطاره: طفولته.

(5) البلج: تباعد ما بين الحاجبين.

(6) انظر: وادي المخازن ص 39.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وإحداث حروف لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمى به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنين 11 و12 هـ (16 و17م) فقال: «في الوقت الذي كانت أوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم»⁽¹⁾.

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبية في مراكش، بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد، يجرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلومتراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله.

(1) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن ص 41.

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع⁽¹⁾.

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرّتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك ومن أهم هذه القيادات، إبراهيم بن محمد الشّفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمري المعقلي.

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصاً في مينائي العرائش وسلا⁽²⁾.

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الأسبان والانجليز والأتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاد⁽³⁾.

د- انهيار الدولة السعدية:

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام 1012هـ/ 1603م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:

(1) انظر: وادي المخازن ص 42، 43.

(2) المصدر السابق ص 44.

(3) انظر: تاريخ عصر النهضة الأوروبية، د. نور الدين حسام ص 456، 457، 458.

1- الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهارها.

2- ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى وانشغل الأمراء السعديين بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

3- دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع كل إمارة على حساب الأخرى ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها.

4- ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.

5- تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردّي والضعف والانهيار حيث لا يزال طفلاً صغيراً وكان أحواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم انتهى الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام 1069هـ / 1658م وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد وبابيعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تصدر العمل السياسي في هذه المرحلة الحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الاشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام 1075هـ-1412هـ وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا يزال أسرة الاشراف العلويين في حكم البلاد إلى يومنا هذا⁽¹⁾.

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/348).

المبحث الثالث

بنو عبد الواد (بنو زيان)

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين، انفصلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد⁽¹⁾.

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلاء والمراعي ثم ساعدتها الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبد الواد يُعْمَرُ أسن بن زيان عن دولة الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعلياً وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقارب الخمسين سنة (633هـ/ 1235م - 681هـ/ 1282م) كان يعمر أسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الأفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف وقاتل مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام 670هـ/ 1271م أمام الضربات المرينية

(1) انظر: تاريخ قادة بلاد المغرب (2/ 234).

قرب وجدة ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كاملاً، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى¹.

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس. وتحالف بني عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني.

وقام بني عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد والحقوا بهم هزائم في عام 679هـ / 1280م.

وكان بنو عبد الواد يجردون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم، وتنهزم قواتهم أمام المرينيين، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني، فيناصرون فريق على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درع حصين بينهم وبين بني مرين إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام 737هـ / 1337م إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للانهار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ص 134.

استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون، ويرجع ذلك إلى أسباب منها⁽¹⁾:

1- ظهور الزعيم يغمر أسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن يقول ابن خلدون عنه: (كان يغمر أسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالاً، واعرْفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك أثاره قبل الملك وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين وأصارهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار واتخذ الأدلة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء)⁽²⁾.

2- حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

3- حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحهم إقطاعات واسعة وأكرمهم بالأموال والعطاء فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

4- إسناد مرافق الدولة إلى الأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الأسباب وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة، وفي الحياة المعمارية، والحياة الثقافية.

5- اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين افريقية المدارية وأوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار ما يحملوه من أفريقيا من تبر ورقيق

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ص 136.

(2) ابن خلدون في تاريخه (7/ 79).

وجلود وعاج وبين ما يجمله التجار من أوروبا وأخصها السلاح.

فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضرائب، واكتفت ما تحصله من رسوم فكان للتجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.

6- اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء حتى أن يحيى بن خلدون (ت 780هـ) وهو أخ المفكر الكبير والمؤرخ المعروف بن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (753هـ / 1352م - 791هـ / 1389م) وكان هذا الأمير محب للعلماء والأدباء وكان هو نفسه أديباً شاعراً وله كتاب اسمه: (نظم السلوك في سياسة الملوك) ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال⁽¹⁾.

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان، والمقري مؤلف نفع الطيب كما امتازت هذه الدولة ببناء المارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق⁽²⁾.

ب- التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:

قسمت السلطات في الدولة إلى:

1- السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف.

2- السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم.

(1) المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ص 136.

(2) موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شبلي (4/ 252).

3- السلطة القضائية ويتولاها قاضي القضاء.

4- السلطة المالية ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسؤولي السلطات السابقة شخص يطلق عليه (مزاوول) دولة حق الإشراف على كل هؤلاء وهو ما يعرف في زماننا رئيس الوزراء وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب⁽¹⁾.

ج- أسباب السقوط لبني عبد الدار:

1- النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

2- قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها.

3- ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

4- مجيء الغزو الصليبي النصراني الأسباني واحتلالهم بجاية سنة 910هـ/ 1504م ثم استيلاءهم على وهران 914هـ ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الأسبانية⁽²⁾، وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

5- ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الأسبان وانتهى الأمر بزوال دولتي بني زيان في عام 962هـ/ 1554م ودخول المغرب الأوسط تحت

(1) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. احمد شبلي (252، 253).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/ 875).

الحكم الإسلامي العثماني الذي استطاع أن يهزم الأسبان⁽¹⁾ وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً، لأن المسلمين العثمانيين دحروا الأسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بني عبد الدار، فكان ذلك التخاذل والتواكل سبباً في تجرأ الأسبان على احتلال وهران واعتدى الجيش الأسباني النصراني على حرمة الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمة المساجد والبيوتات الشريفة وفي أواخر رمضان سنة 915هـ / 1511م اقتحم النصارى الأسبان أسوار (بجاية) وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثير من معالم المدينة⁽²⁾.

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء إخوانهم في العقيدة والدين الذين جاءوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الأفريقي.

(1) انظر: المغرب الكبير (2/ 875).

(2) انظر: قادة فتح المغرب العربي (2/ 235).

المبحث الرابع الدولة الحفصية

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر ابن الخطاب كابن نخيل، الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية⁽¹⁾.

ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم.

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش، ويعتبر أبو حفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت، وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين، من غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالإمام، وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ⁽²⁾.

وبلغ من احترام عبد المؤمن له، وحسن تقديره إياه أن كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وأفريقية.

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور⁽³⁾ اسند إلى أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي أمر أفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام

(1) ابن خلدون، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب (1/374).

(2) انظر: بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ص 220.

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص 121.

بأعبائها ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب.

وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدى، أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية⁽¹⁾.

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة 626هـ / 1229م⁽²⁾.

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي بالانفصال منها:

1- انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها من موقعة العقاب سنة 1212م.

2- رفض الخليفة الموحدى إدريس المأمون في عام 626هـ / 1229م لتعليم ابن تومرت ثم أزال اسمه من السكة والخطبة.

3- قتل الخليفة الموحدى إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ومعظمهم من هنتاة، قبيلة الحفصيين.

فأستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق ص 180.

حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة. وان كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان⁽¹⁾.

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسطنطينة وبجاية ودخل تلمسان واته بيعة أهل طنجة وسبتة وسلجاسة، كما آتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين⁽²⁾، ودعا له عدد من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس واشبيلية والمريّة والى الأمير أبي زكريا عبد الواحد وجه أمير بلنسية وفدأ برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشد قصيدته السينية الفريدة التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جاراها⁽³⁾ وهي:

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| أدرك بخيلك خيل الله أندلسا | إن السبيل إلى منجاتها درسا |
| وهب لها من عزيز النصر ما التمت | فلم يزل منك عز النصر ملتمسا |
| وحاشى مما تُعانيه حُشاحشتها | فظالما ذاقت البلوى صباح مسا |
| يا للجزيرة أصبح أهلها جزراً | للحادثات وأمسى جدُّها نَعسا |
| في كل شارقة إمام بائقة | يعود مآتمها عند العدا عروسا |
| وكل غاربة إجحاف نائبة | تثني الأمان حذراً والسرور أسى |
| تقاسم الروم لانا لت مقاسمهم | إلا عقائلها المحجوبة الأنسا |

(1) انظر: دراسات في المغرب والأندلس للعبادي ص 180.

(2) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس ص 127.

(3) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/120).

ما ينسف النفس أو ما ينزف النفس
 جدلان، وارتحل الإيمان مبتسماً
 يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
 ومن كنائس كانت قبلها كنسا
 وللنداء غداً إثنائها جرساً
 مدارساً للمثاني أصبحت دُرُسا
 ما شئت من خلع موشية وكُسا
 فصوح التصر من أدواحها وعسى
 يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
 غيث الدبا في مغانيها التي كسبا
 تحيف الأسد الضاري لما افترسا
 وأين عصر جليناه بها سلسا
 ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
 فغادر الشَّمَّ من أعلامها خُنسا
 إلى إداركٍ ما لم تطأ رجلاه مختلسا
 ولو رأى راية التوحيد ما تبسنا
 أبقى المراسُ لها حبلاً ولا مرسا

ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
 حتى يطأطئ رأساً كل من رأسا
 عيونهم أدمعاً تهمي زكاً وخسا
 داء ما لم تباشر حَسْمَه انتكسا

وفي بلنسية منها وقرطبة
 مدائن حلها الإشراك مبتسماً
 وصيرتها القوادي العائثات بها
 فمن دساكر كانت دونها حرساً
 يا للمساجد عادت للعدا بيعاً
 لهضي عليها إلى استرجاع فاتتها
 وأربعاً نممت أيدي الربيع لها
 كانت حدائق للأحداق مونقة
 وحال ما حولها من منضر عجب
 سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا
 وابتز بزتها مما تحيفها
 فأين عيش جنيناه بها خضراً
 محاسنها طباغ أتيح لها
 ورَجَّ أرجاءها لما أحاط بها
 خلاله الجوُّ فامتدت يدها إلى
 وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً
 صلَّ حبالها أيها المولى الرحيم فما
 إلى أن قال:

طهر بلادك منهم إنهم نجس
 وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم
 وانضر عبداً بأقصى شرِّ قها شرقت
 هم شيعة الأمر وهي الدارُ قد نهكت

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/120، 121، 122).

فاملاً هتماً لك التأييد ساحتها مجرداً سلاهباً أو خطيئة دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى⁽¹⁾

ولقد لبى السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال
والمؤن إلى المدينة المحاصرة إلا أن تلك الإغاثة لم تفيد أهل بلنسية بسبب الحصار
المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع
للمعتدين النصارى الحاقدين⁽¹⁾.

وفتح أبو زكريا أبواب أفريقية للهجرة الأندلسية وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة
الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى، وكان من أعظم
حكام دولة الحفصيين وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية حققت أهدافها حيث استطاع
أن يمكن لبني حفص الحكم في أفريقية وتوسع نفوذه من أجواز طرابلس شرقاً إلى
مدينة الجزائر غرباً، وبدأ كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب⁽²⁾.

ب- ولاية العهد:

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة. وفي
عام 633هـ / 1235م عين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وحول له معظم
الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتميز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل

(1) المصدر السابق (3/ 122).

(2) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس ص 128.

مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد.

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد ومما جعل في وصيته قبل موته في عام 647هـ / 1249م:

- 1- (المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.
 - 2- تفقده للجيش وحسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفية الكبير، فيجري السفية عليه، ويفسد نية الكبير، فيكون إحسانه مفسدة له في كلا الوجهين.
 - 3- أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات، لان الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.
 - 4- أن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وان لا يقتصر في استشارتهم على احد منهم دون الآخر، بل يأخذ بأرائهم جميعاً، فان في تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.
 - 5- عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاية في إعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاء وعن إحكامهم، ومهما دعي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراعى من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوادث المتظلمين من أبناء رعيته.
 - 6- أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات، لأنها أنجح الطرق في معالجة الأمور.
 - 7- أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متباد في غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.
- أما الحسود فعليه أن لا يقبل عثرته، لان في إقالته ما يشجعه على القول، والقول

يدفعه إلى العمل، ووبال عمله يضر غيره، فليحسم داءه قبل انتشاره ويتدارك أمره قبل إظهاره.

8- عليه أن يزهّد في الدنيا، فلا ينشغل بلهوها وزينتها بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا، وينال بها مرضاة الله في الآخرة⁽¹⁾.

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام 656هـ وكان إعلانه كأمر المؤمنين للمسلمين 657هـ / 1259م ويأبىه شريف مكة بالخلافة⁽²⁾.

وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة، كالأصل العربي، والنسب النبوي، إلى جانبهم قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب⁽³⁾، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشرف قریش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي ﷺ ابنته حفصة فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة⁽⁴⁾.

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية وذكر نسبهم الذي يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

(1) ابن خلدون تاريخ الدول (1/ 406-408).

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص 123.

(3) نفس المصدر السابق ص 124.

(4) نفس المصدر السابق ص 124.

قوم أبو حفص أب لهم وما أدراك والفراروق هو أول⁽¹⁾

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى يقول السلوي الناصري: «ولما بلغ بنو مرين بالمغرب، وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب، واستجلاباً لمرضاتهم، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم...»⁽²⁾ واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة.

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الأفريقي عاصمتها تونس وبسطت نفوذها في بلاد الأندلس والمغرب والحجاز، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المالك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسة ومن أهم تلك الأهداف السيطرة على البحر الأحمر وتجارتها، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالطولونيين، والاشيدين والفاطميين (العبيدين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمالكي والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين»⁽³⁾.

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (658 - 676هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضرراً للأمثال، رأى السلطان بيبرس أن

(1) نفس المصدر السابق ص 124.

(2) انظر: السلوي (الاستقصا 28-29) نقلاً عن العبادي دراسات.

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 127.

سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته، لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ / 1261م، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب.... الخ ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوعاً وكرماً متميزاً وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي ووضع مندوباً تابعاً له بجانب شريف مكة إلا أن بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها⁽¹⁾.

استطاع المستنصر أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والأدباء وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة، بعضها من السودان، وبعض آخر من أوروبا، وأهتم بعاصمة الدولة، وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة 668هـ / 1270م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت، بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه⁽²⁾.

مات المستنصر الموحيدي عام (675هـ / 1277م) وبعد انقضاء القرن السابع

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 127.

(2) المغرب في تاريخ المغرب ص 128.

المجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات⁽¹⁾، وأصبح الشمال الأفريقي في دوامة الصراع.

واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم افريقية، لدى انسحاب المرينيين، وبرزت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر 772هـ/ 1370-796هـ/ 1394م، واستطاع أن يقف أمام هجوم من النصارى على المهديّة سنة 792هـ/ 1390م، فهزم موهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي استقلت في حياة أبيه 803هـ/ 1400م، وعلى بسكرة سنة 805هـ/ 1402م ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة 813هـ/ 1410م.

وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحه خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر وتوفي أبو فارس سنة 838هـ/ 1434م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم 14 شهراً ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة 850هـ/ 1446م ويهزم عمه أبا الحسن⁽²⁾.

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده، وشكلت علاقات ومعااهدات تجارية مع فرنسا، وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته، وهاجم الأاسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه:

(1) عام 1346، 1350، 1357م نقلاً عن العبادي دراسات ص 129.

(2) المغرب الكبير (2/ 879).

وكننا أسوداً والرجال تهابنا فجاء زمان فيه نخشى الأرابنا⁽¹⁾

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الأسيبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الأسيبان بمذبحة في تونس سنة 941هـ / 1534م فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والأسيبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الأسيبان وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام 976هـ / 1568م⁽²⁾.

وذكر الدكتور عبادة كحيلية أن الأمر خُلع للعثمانيين عام 981هـ / 1573م⁽³⁾.

بحر طرابلس والدولة الحفصية:

اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب المرغني، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاني، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (647-665هـ) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لأمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمير.

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة

(1) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (4/ 305).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: المغرب في تاريخ المغرب ص 132.

من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس، فأجتمع حوله الناس واختاروه أميراً لهم سنة 711هـ ورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها واحتل تونس وجعل ابنه أبو ضربة عليها ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس⁽¹⁾.

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبو بكر سنة 818هـ الذي استطاع أن يجرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر⁽²⁾.

د- طرابلس بين بني ثابت وبني مكى وبني حفص:

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم آل لهم حكم طرابلس من سنة 724هـ وظلوا يحكمونها -بدون استقرار- حتى قبيل غزو الأسيان لها⁽³⁾.

ومن ولاية بني ثابت:

■ ثابت بن محمد (الأول) 724هـ

■ محمد بن ثابت 730هـ

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة 748هـ⁽⁴⁾.

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي ص 342.

(2) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (4/ 378).

(3) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (4/ 379).

(4) المصدر السابق نفسه.

استطاع تجار جنوه أن يمدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة في عام 755هـ وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوه، فتدخل بنو مكّي وهم من البربر، ونسبهم في لواته بزعامه أحمد بن مكّي وكان حاكماً لقباس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس وبعد ما مكث الجنويين حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فأعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو أخوانه في العقيدة⁽¹⁾.

وبعد هذا الموقف الشهيم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكّي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها إلى أن توفي عام 766هـ.

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيء المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الأمر كرهه الناس وشموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر وقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكّي وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء⁽²⁾.

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص 352.

(2) المصدر السابق نفسه ص 353.

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة 792هـ ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران بن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة إلا إنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس ويقبضوا على واليها علي بن عمران. واسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر وعين عليها رجل من قبله يثق فيه وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها⁽¹⁾، بعد أن حكموها نحو 79 سنة⁽²⁾.

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام 803هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام 833هـ.

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروط:

1- أن يبقى واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي.

2- أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء.

3- أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد.

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبد الواحد بن حفص حزمًا ورأيًا وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات، وكثرت الأموال وبقي والياً إلى أن توفي 858هـ وكانت مدة حكمه 25 سنة كانت أيام رغد وهناء على أهل طرابلس⁽³⁾.

(1) المصدر السابق نفسه ص 355.

(2) المصدر السابق نفسه ص 346.

(3) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص 357.

ثورة بني غراب:

ثار بنو غراب على والي طرابلس أبي بكر بن عثمان وألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس فسجنه ثم قتله.

ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب وقام رجل يقال له منصور أصلح بين المتخاصمين وهدأت الفتنة واختار الطرابلسيون الشيخ منصور وهو الذي سعى في الإصلاح والياً عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر وسمع سكان الدواخل بيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة ومسلاتة وبني وليد وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام 885هـ وخلفه في الحكم مامي وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة. وتوفي عام 898هـ واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط. وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ولم يكن أهلاً بالولاية فأهمل تحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ودام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو 18 سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة وجمع الأموال والثروات⁽¹⁾.

ويرى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاهها عبد الواحد بن حفص سنة 833هـ - إلى أن احتلها الأسبان سنة 916هـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم، وأخلاقهم

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص 359.

وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع فيهم الأعداء من النصراري فتكالبوا عليهم¹، وحانت الفرصة للأسبان فجهزوا مئة وعشرين قطعة بحرية وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الأسبان، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين. وفي 8 من ربيع سنة 916هـ تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصل أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر، سنة 916هـ الخامس والعشرين من يوليو سنة 1510م وبدأ القتال بين النصراري الأسبان والطلليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس ولم تكن القوات متكافئة وسقطت المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام 942هـ 1535م واستمر فرسان الدين يوحنا حتى عام 958هـ 1551م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحزروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا وستعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العلية ودورها في العالم الإسلامي عموماً والشمال الإفريقي خصوصاً.

ر . أسباب سقوط الدولة الحفصية:

1- اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدية التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي

(1) المصدر السابق نفسه ص 360.

الشمال الأفريقي فأصبح الولاء ضعيفا للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمنافرة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

2- الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

3- استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحيانا الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

4- استهدفت مدن افريقية من قبل الأسبان النصارى والأوربيين عموما فعملوا على تنصير الشمال الأفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الأسبان والحفصيين.

5- ظهور قوة إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصره الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

6- تطلع أهالي الشمال الأفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الأسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

7- كان سقوط الدولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه بسبب التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.

الخلاصة

- 1- يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدولة.
- 2- يعتبر منهج ابن تومرت خليطاً من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخواارج.
- 3- لم يتورع ابن تومرت في سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه.
- 4- يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الأفريقي بقوة السلطان، وتأليفه لكتب في مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السنة بالابتداع.
- 5- أخطأ بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة إصلاحية، لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الإصلاح التي جاءت في الكتاب والسنة بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة في ضياع الأندلس وتمزق وحدة الشمال الأفريقي.
- 6- كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية وأهداف سياسية سعى بكافة الوسائل والأساليب لتحقيقها.
- 7- ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في أوساطه.

8- تزعم عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروباً ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الأفريقي.

9- ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبد المؤمن بن علي تمثلت في، إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات، وجعل الحكم وراثياً في أسرته.

10- لم يلتزم عبد المؤمن بالمنهج التومرتي حرفياً وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما حانت له فرصة كما حدث عندما ألغى نظام الطبقات وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ويعتبر ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

11- تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام 558هـ بعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين في 563هـ وكان أبو يعقوب مولع بحب الفلاسفة ولذلك قرب إليه ابن طفيل.

12- عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن يتتهدوا فرصة انشغال الموحدين به، وشقوا عصا الطاعة ولم يستطع الموحدون أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام 567هـ.

13- اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام 559هـ وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام 563هـ.

14- قامت في المغرب في قفصة في عام 575هـ ثورة ضد الموحدين بقيادة علي بن المعز بن المعتز الرندي واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها في عام 576هـ.

15- عجز يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس، لعدة أسباب منها، نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحيدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية وانشغاله بالمناقشات الفكرية حتى عند حصاره لأعدائه، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا، كما أن الخليفة الموحيدي يوسف كان حريصاً على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين.

16- توفي السلطان يوسف في 580هـ ودفن في تينملل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الإسلامي.

17- تولى أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه، فقام بالأمر أحسن قيام وأظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

18- صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة بن تومرت، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين.

19- عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والأعراب واستطاع أن يخمد شوكتهم وأن يوحد الشمال الأفريقي كله.

20- عمل على استنفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعداداً للجهاد ضد النصارى في الأندلس.

21- استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في الأندلس في معركة الأرك عام 591هـ وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الأندلس والشمال الأفريقي من أهمها، ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس، وسقوط هيبة ملوك النصارى.

22- نستطيع أن نقول بأن يعقوب المنصور اخذ بأسباب النصر المعنوية، والحسية حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها، ووحيد القيادة، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة، وأسند المهام إلى أهلها... الخ.

23- طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمدد بمدد ضد النصارى في المشرق إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارى في المشرق تحت قيادة صلاح الدين.

24- توفي السلطان يعقوب المنصور عام 595هـ بعد أن جاهد بالسيف وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السنة والجماعة.

25- تولى أبو محمد عبد الله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام 595هـ واستطاع أن يقضي على ثورة بني غانية وأن يوحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصداً جهاد النصاري في الأندلس وانهمزم في معركة العقاب عام 609هـ أمام الجحافل النصرانية ثم رجع إلى المغرب وانهمك في الشهوات والملذات حتى قتل مسموماً عام 910هـ.

26- بعد هزيمة العقاب توغل النصاري في مدن وقرى المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية من قتل وهتك للأعراض وسبي النساء ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس.

27- تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ولقد كان لصغر سن الخليفة وقلة خبرته وإعجابه بنفسه وتسلمت الوزير ابن جامع عليه سبب في هزيمة العقاب.

28- لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ومن أهمها، هزيمة معركة العقاب وظلم الموحدين للمرابطين، والثورات المتتالية في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحد، والانهيار العسكري الذي أصاب القوات الموحدية، وانكماش العقيدة التومرية في نفوس الموحدين، وتحول الحكم إلى الوراثية.

29- بعد زوال دولة الموحدين في عام 668هـ/ 1269م انقسم الأندلس والشمال

الأفريقي إلى دويلات من أهمها، دولة بني الأحمر في غرناطة، وبني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط، وبني حفص في المغرب الأدنى.

30- كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها أمام الهجمات النصرانية أسباب من أهمها، موقعها الجغرافي المتميز، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ما تملك، هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التي سقطت إليها، قانون التحدي عند الشعور بالخطر، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله، براعة حكام غرناطة في إدارة الصراع العسكري والسياسي.

31- ظهر في ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الذي استطاع أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في معركة قرب استاجة وظهرت ملكات قيادية للسلطان المريني تمثلت في أمور منها، اهتمامه بعنصر الاستطلاع، إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة، خطبته المؤثرة في جنوده، دخوله في المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

32- كانت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر يعترها الذبول والشك بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الأحمر بعقد اتفاقات مع ملوك النصارى إلا أنها سرعان ما تبخر أمام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين إلى مجارها الطبيعية.

33- كان لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة ولقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى وكانت أعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارى إلا أنهم عوضوا نقصهم بالإيمان وصحة اللجوء إلى الله فأنزل الله

نصرهم عليهم وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارى وملوكهم في عام 719هـ وكان عدد الملوك والأمراء القتلى أكثر من عشرين والقلى من الجنود أكثر من خمسين ألفاً.

34- كانت موقعة طريف في عام 741هـ والتي انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم أمام النصارى لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي، ووالد لسان الدين الخطيب.

35- اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من اجل احتلال غرناطة في عام 887هـ واستطاع أبو عبد الله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه وياشر الحروب بنفسه ضد النصارى إلا انه وقع أسيراً بيد النصارى عام 888هـ.

36- استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبد الله الصغير وأطلق سراحه في الوقت الحرج الذي زاد من الصراع الداخلي في غرناطة بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة.

37- في عام 897هـ حاصرت جحافل النصارى غرناطة ونقضوا كل العهود والمواثيق وضيّقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا إلى تسليمها، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين.

38- كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب ولقد ارتكبت في حق المسلمين ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان.

39- حاول المستضعفون من المسلمين أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى وقد دوت في هذا البحث إحدى الفتاوى الهامة.

40- كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الأندلس من أهمها، تفكك وحدة الشمال الأفريقي، الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف، الاختلاف والتفرق بين المسلمين، موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة، غدر النصارى ونقضهم للعهد، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب، الرضا والخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم، سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات.

41- لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكيم شرع الله، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين.

42- زالت دولة الموحدين من الوجود عام 668هـ واستولى على مقاليد الحكم في المغرب الأقصى بنو مرين.

43- حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام 869هـ وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى في الأندلس.

44- من أهم أسباب سقوط دولة بني مرين؛ دسائس ملوك الأسبان، وتحالف غرناطة معهم ضد بني مرين، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب، وتولى الحكم بعض الأمراء الضعاف، الخطر الخارجي من البرتغال على موانئ الدولة، وغير ذلك من الأسباب.

45- بعد سنتين من تولي أبي عبد الله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام 877هـ / 1472م.

46- استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام 956هـ وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها؛ دخول الوطاسيين في معاهدات مع الأسبان والبرتغاليين، عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانئها، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي، فالتف الشعب حولهم.

47- استطاع الأمير أبو مروان عبد الملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين فساعده على تخليص المغرب من ابن أخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام 983هـ.

48- كان السلطان عبد الملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط وله من بعد النظر حظ وافر، فأقام دولته على أسس علمية، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية.

49- حقق السعديون بقيادة السلطان عبد الملك وأخيه أحمد المنصور انتصاراً حاسماً على النصارى في معركة وادي المخازن في عام 986هـ وتجلت عبقرية السلطان عبد الملك العسكرية في وضعه خطة محكمة وشرع في تنفيذها بنفسه.

50- استشهد السلطان عبد الملك في وسط المعركة وتولى أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب.

51- كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحراً في العلم وترك مؤلفات في فنون متعددة منها، أدبية وشعرية وحديثية ومن أشهر كتبه المعارف في كل ما تحتاج الخلائق.

52- استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته أشواطاً نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على أسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة.

53- بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام 1012هـ / 1603م ضعفت الدولة السعدية ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي وانفصلت عن كيانها مجموعة من الإمارات والولايات وانتهت فعلياً على يد قبيلة الشبانان العربية في عام 1069هـ / 1658م وأزالوا نهائياً الأسرة السعدية.

54- لم تستطع قبيلة الشبانان أن تقوم بالدور القيادي في المغرب فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الاشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام 1075هـ / 1412م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الاشراف العلويين إلى يومنا هذا في حكم المغرب الأقصى.

55- حكم المغرب الأوسط بنو عبد الواد بعد زاول دولة الموحدين واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الأسبان لمدينة وهران وبجاية في عام 915هـ / 1511م وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام 962هـ / 1554م على يد الفاتحين العثمانيين.

56- حكم افريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الأفريقي بنو حفص وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود في عام 976هـ / 1568م على يد العثمانيين.

57- سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الأتبان في عام 916هـ ثم سلمت إلى فرسان الدين يوحنا في عام 942هـ / 1535م واستمر الفرسان الدين يوحنا حتى عام 958هـ / 1551م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا.

أهم مراجع البحث

1. ابن جزري ومنهجه في التفسير، علي محمد الزيري، دار القلم ، الطبعة الأولى، 1407هـ 1987م.
2. ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ الأكبر، مؤسسة جمال، بيروت-لبنان.
3. اعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة 1985م.
4. ابن ماجة للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي.
5. أشراط الساعة للوابل، يوسف عبد الله الوابل، الطبعة الثالثة، 1411هـ 1991م ، دار ابن الجوزي.
6. إجماع العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي.
7. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط 1983، 3م.
8. المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية ، بيروت، 1981م.
9. البيذق أخبار المهدي بن تومرت، أبو بكر الصنهاجي، تحقيق لبقني بروفنسال، باريس 1928م.

10. الدعوة الموحدية بالمغرب، عبد الله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة ، الطبعة الأولى 1964م.

11. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة 1963م.

12. النهاية، الفتن والملاحم ، للحافظ إسماعيل بن كثير ، تحقيق د. طه زيني، دار النصر للطباعة ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت سنة 1399هـ.

13. المنار المنيف لابن القيم، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب، 1390هـ.

14. النبوة والأنبياء، لمحمد علي الصابوني.

15. الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1395هـ.

16. الحموية، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية.

17. أخبار المهدي، تحقيق عبد الحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس 1395هـ.

18. الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1408هـ، 1989م.

19. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورقي، تونس 1329هـ.

20. ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، دار الأندلس بيروت الطبعة الأولى 1983م.
21. الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق، د. علي احمد، دار شمال دمشق، 1995م.
22. النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري الآتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في مصر.
23. المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيل، الطبعة الأولى 1418هـ- 1997م.
24. التكملة، لكتاب الصلة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار.
25. العقاب، شوقي أبو خليل، دار الفكر، تصوير 1405هـ 1985م عن ط 1 1979م.
26. الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زيب، دار الأمير، الطبعة الأولى 1415هـ 1995م.
27. السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ 1993م.
28. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.
29. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.

30. الإعلام للزركلي، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
31. الإمام مالك بن أنس، عبد الغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية، 1410هـ
1990م.
32. الآراك، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الأولى 1979م.
33. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: الشيخ أبو العباس احمد بن خالد
الناصرى.
34. الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للسيد محمد صديق حسن القنوجي
البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة 1399هـ.
35. الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي،
مطبعة الأزهار البارونية.
36. الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، نشر دار البيان، دمشق، سنة
1401هـ.
37. بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مجموعة من البحوث التي أقيمت في ندوة
الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ د. احمد فكري 16-20 أكتوبر 1976م شباب
الجامعة.
38. تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت الطبعة الثالثة عشر
1411هـ 1991م.
39. تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر احمد الزاوي، دار التراث العربي، الطبعة
الثالثة.

40. تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، د. نور الدين حسام ، دار الفكر ، طبعة 1968م.
41. تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري ، تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع.
42. تاريخ الأندلس ، عبد الرحمن الحجبي، دار القلم ، الطبعة الرابعة 1415هـ 1994م.
43. تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم محمد حسين ، مؤسسة شباب الجامعة ، طبعة 1986م.
44. تجربة الإصلاح في حركة بن تومرت، د. عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية 1415هـ/ 1995م.
45. تفسير الرازي للإمام الفخر الرازي.
46. تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي.
47. تفسير الألوسي ، روح المعاني للإمام الألوسي.
48. البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى 1408هـ، 1988م.
49. دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، د. عبد الحليم عويس، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1410هـ، 1989م.
50. دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د. احمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة.
51. دعوة الحق، السنة 19، العدد 8، رمضان 1398هـ.

52. ديوان التحقيق والمحاکمات لمحمد عبد الله عنان .
53. دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر احمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م.
54. دولة المرابطين ، سلامة محمد سلمان الهرفي، دار الندوة 1405هـ / 1985م.
55. دائرة المعارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، مطابع دائرة المعارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة 1343هـ.
56. رحلة ابن جبیر، أبو الحسن محمد بن احمد ، دار صادر ودار بيروت 1964.
57. تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف اشباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1958م.
58. تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية بالأوفست.
59. درء تعارض العقل والنقل والإمام شيخ الإسلام أحمد عبد الحلیم بن تیمية.
60. روض القرطاس، لأبي الحسن علي بن عبد الله ، الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.
61. سقوط الأندلس ، د.ناصر العمري، مؤسسة المؤتمن، دار الوطن، الطبعة الأولى 1412هـ.
62. سقوط غرناطة ، شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الثانية 1981م.
63. سقوط دولة الموحدين ، د. امراجع عقيلة الغناكي، 1409هـ، 1988 منشورات جامعة قاريونس.

64. سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين محمد بن احمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية، 1402هـ.
65. سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.
66. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن احمد بن محمد الحنبلي، المسمى ابن العماد (ت1089).
67. صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى 256هـ.
68. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث.
69. صحيح الجامع للألباني، تحقيق، الشيخ محمد ناصر الدين، الألباني، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى، 1388هـ.
70. صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.
71. صلاح الدين بطل حطين، عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة ، 1405هـ/ 1985م.
72. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1964م.
73. عقيدة أهل السنة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
74. عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حسن مؤنس.

75. عقائد الإمامية ، لمحمد رضا ظافر .
76. عوامل النصر والهزيمة، لشوقي أبي خليل، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية 1407هـ 1987م.
77. غرناطة في ظل بني الأحمر، د.يوسف شكري فرحات ، الطبعة الأولى ، 1402هـ 1982م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
78. فقه التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد محمد الصلابي، سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي.
79. فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام احمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية ، ومكبتها، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
80. فتاوى ابن تيمية ، لأبي العباس، احمد بن عبد الحلیم بن تيمية ، جمع وترتيب ، عبد الرحمن بن محمد قاسم.
81. قيام دولة المرابطين ، لحسن احمد محمود القاهرة، 1957م.
82. قادة فتح بلاد المغرب، محمد شيت خطاب، دار الفكر ، الطبعة السابعة ، 1404هـ / 1984م.
83. موسوعة التاريخ الإسلامي، د.احمد شبلي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة سنة 1995م.
84. مجموعة رسائل ابن حزم.
85. موسوعة المغرب العربي للغنيمي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 1414هـ / 1994م.

86. مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقيا، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة 1979م لم تطبع.

87. معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى القاهرة 1980م.

88. مسند الإمام احمد بن حنبل، شرح وتحقيق احمد شاكر، أئمه د. عبد الحسين عبد المجيد هاشم، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.

89. مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا.

90. الأغالبة سياستهم الخارجية، محمود إسماعيل.

91. مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، 1413هـ، 1992م، مجلة محكمة.

92. نظم الجمان في أخبار الزمان لابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي.

93. نظم المتناثر في الحديث المتواتر، للشيخ جعفر الحسيني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت 1400هـ.

94. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقرئ، تحقيق، د. إحسان عباس.

95. وادي المخازن، لشوقي أبي خليل دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1988م.

96. وفيات الأعيان لابن خلقان، شمس الدين، أبو العباس بن خلكان، دار صادر بيروت، حققه إحسان عباس.

المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| الإهداء | 5 |
| كلمة الناشر | 7 |
| المقدمة | 9 |
| <u>الفصل الأول : محمد بن تومرت</u> | 15 |
| المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم | 15 |
| المبحث الثاني : البعد التاريخي عند ابن تومرت | 23 |
| المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية | 29 |
| المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت | 41 |
| المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت | 71 |
| <u>الفصل الثاني: عبد المؤمن بن علي وأبنائه وأحفاده</u> | 93 |
| المبحث الأول : عبد المؤمن بن علي | 93 |
| أولاً : اسمه ونسبه | 93 |
| أ- لقاء بمحمد بن تومرت | 94 |
| ب- بيعته | 94 |

| | |
|-----|--|
| 97 | ثانياً: قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيده للمغرب |
| 107 | ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس |
| 110 | رابعاً: فتح المغرب الأدنى والأوسط |
| 112 | خامساً: سياسته مع النصارى واليهود وتخرجه للسلطة لضبط نظام الدولة. .. |
| 131 | المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف |
| 131 | أولاً: علمه وبيئته |
| 131 | أ- علمه |
| 132 | ب- بيئته |
| 134 | ثانياً: سياسة يوسف عبد المؤمن في الأندلس |
| 136 | أثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين |
| 136 | ثالثاً: الثورة في المغرب الأقصى |
| 137 | رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى |
| 139 | خامساً: غزو الخليفة الموحي لبلاد الأندلس |
| 141 | سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس |
| 147 | المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور |
| 147 | أولاً: اسمه وشيء من سيرته |
| 148 | أ- إصلاحاته في منهج الدولة |
| 154 | ثانياً: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب |

| | |
|-----|--|
| 155 | أ- الصراع مع بني غانية |
| 158 | ب- جهاده في الأندلس |
| 161 | ثالثاً: معركة الأرك |
| 162 | أ- خطة الموحدين |
| 168 | رابعاً: نتائج معركة الأرك |
| 170 | خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك |
| 173 | سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور |
| 178 | سابعاً: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه |
| 181 | المبحث الرابع: الخليفة الموحي أبو محمد عبد الله الناصر |
| 182 | أولاً: ثورة بني غانية |
| 185 | ثانياً: جهاد الناصر لدين الله |
| 189 | أ- حصار قلعة رباح |
| 191 | ب- مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج |
| 192 | ج- المعركة |
| 196 | ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب |
| 201 | رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين |
| 213 | خامساً: خلفاء الموحدين |

| | |
|-----|---|
| 215 | <u>الفصل الثالث: الأندلس والشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموحدين</u> |
| 217 | المبحث الأول: مملكة غرناطة |
| 222 | أولاً: ترجمة ابن الأحمر |
| 222 | أ- شيء من سيرته |
| 225 | ثانياً: جهاد المرينيين في الأندلس |
| 227 | أ- مجلس الشورى الحربي |
| 228 | ب- ترتيب أبي يعقوب لجيشه |
| 231 | ت- الغزوة الثانية |
| 233 | ج- مشيخة الغزاة |
| 237 | ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ |
| 239 | د- موقعة طريف |
| 243 | هـ- العلماء الذين سقطوا شهداء |
| 253 | ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة |
| 256 | رابعاً: محاكم التفتيش |
| 260 | خامساً: فتاوى هامة |
| 262 | سادساً: القواعد النصرانية الاسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية |
| 266 | سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً |
| 282 | ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس |

| | |
|-----|---|
| 287 | المبحث الثاني: دولة بني مرين في المغرب الأقصى |
| 287 | أولاً: عبد الحق بن محيو المريني |
| 287 | ثانياً: المنهج الذي قامت عليه |
| 289 | ثالثاً: حركة التوحيد للشمال الأفريقي |
| 291 | رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين |
| 292 | خامساً: الدولة الوطاسية |
| 294 | سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية |
| 294 | سابعاً: السعديون |
| 297 | ثامناً: من إصلاحات الملك عبد الملك وأعماله |
| 298 | تاسعاً: معركة وادي المخازن |
| 307 | عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن |
| 309 | الحادي عشر: نتائج المعركة |
| 311 | الثاني عشر: السلطان أبو العباس أحمد المنصور |
| 311 | أ- من أشهر شيوخه |
| 312 | ب- من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور |
| 312 | ج- إدارته للدولة |
| 314 | د- انهيار الدولة السعدية |
| 317 | المبحث الثالث: بنو عبد الواد (بنو زيان) |

| | |
|-----|---|
| 320 | ب- التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد |
| 321 | ج- أسباب السقوط لبني عبد الواد |
| 323 | المبحث الرابع: الدولة الحفصية |
| 327 | ب- ولاية العهد |
| 333 | ج- طرابلس والدولة الحفصية |
| 334 | د- طرابلس بين بني ثابت وبني مكّي وبني حفص |
| 337 | س- ثورة بني غراب |
| 338 | و- أسباب سقوط الدولة الحفصية |
| 341 | الخلاصة |
| 353 | أهم مراجع البحث |
| 363 | المحتويات |

